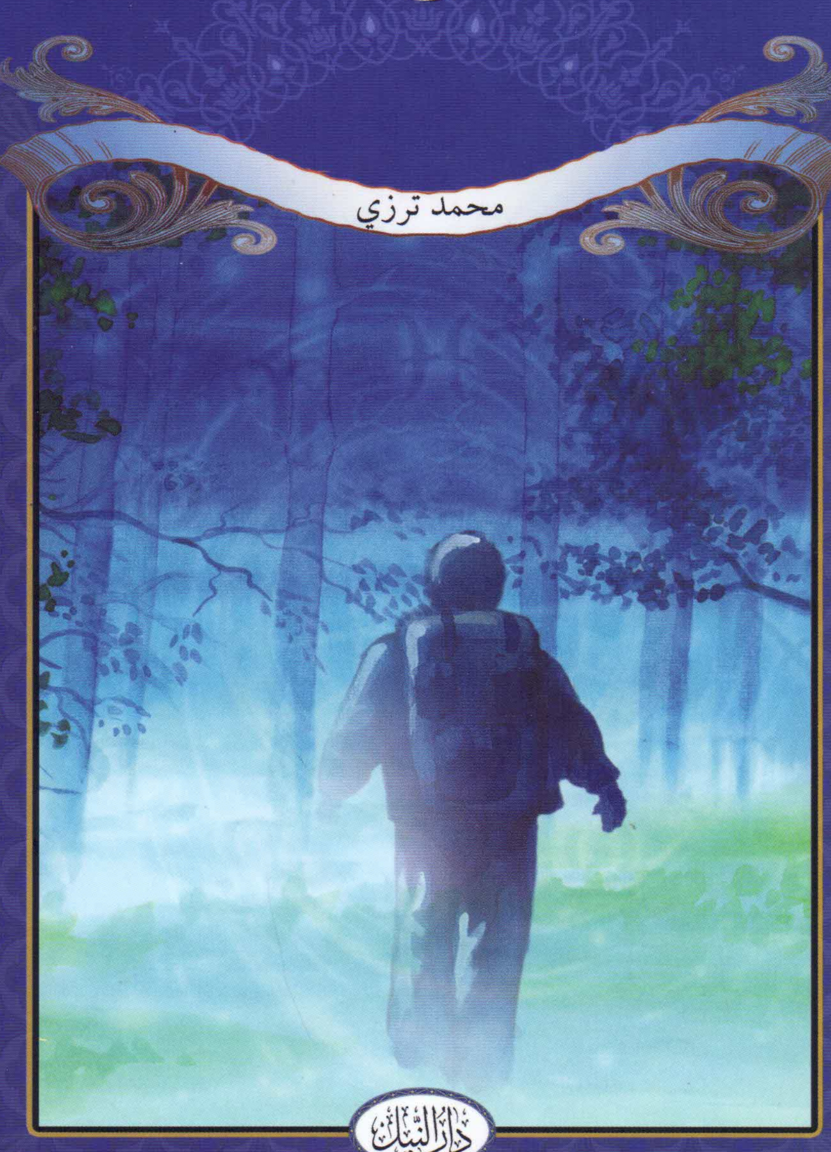
لستَ وحدك!

محمد ترزي



لستَ وحدك!

محمد ترزي

كم يتعجّل بنو البشرِ قطفَ الثمرةِ قبلَ نضوجها..!

وكم يُحاول الإنسانُ الوصولَ إلى النتيجة قبل إمعان الن
في مقدّماتها..!

ولكنّ الإنسان بعد أن يكتشف أنّه تعجّلَ الحكمَ أو النتي
ينبعثُ في أعماقه عذابُ الضمير، فتراه يتراجعُ محاولًا استدر
ما فاته، فيتعلّم دروسًا مفيدةً وتتكشّف له آفاقٌ جديدة، وإ
تجد هذا الكتاب يتناول حزمةً من القصص الخيالية التي تُش
وترمُز إلى نظيرها من الأحداث الواقعية، بهدف ترسيخ الف
السليم في الأعماق، وتأصيلِ المبادئ السليمة في النف
البشريّة، لينشأَ الجيلُ الجديد في بُحبوحةٍ من الأخلاق الحمي
والطِّباع المجيدة، عندها سيبقى ضميرالأمّةِ حيًّا.





لست وحدك!



لست وحدك!

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

غلاف

نوردوغان شكماكشي

تصميم

ياووز يلماز - أحمد شحاتة

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6183-27-8

رقم النشر: 1009

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج - جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

لستَ وحدك!

تأليف

محمد ترزي

ترجمة

أحمد كمال



فهرس



ما زال ضميرُه حيًا

كاد قلبُـه يتحـرّكُ مـن مكانه؛ لكونـه يقوم بهـذا الفعل للمرّة الأولى في حياته، فكَّرَ لأسـابيع، إلى أن أيقنَ أن هذه هي الحيلة المناسبةُ، غير أن قلبه لم يكن راضيًا عن ذلك.

جلسَ وأخذَ يفكّر ويضـعُ الخُططَ لتنفيذِ هذا الأمر لساعات، ولـم يستطـعْ أن يتخلّى عن التفكيرِ في عاقبته إذا أمسكَ به أحد.

شَعَرَ بالمَلل من التفكير في هذا الأمر طويلًا، وقال في نفسه: "ليحـدثْ ما يحدث، فلم يَعُدْ يهمُّنـي الأمر"، ومِن ثَمَّ قَرَّر تنفيذَ الأمـر الـذي وَضَعَهُ نُصْـبَ عينَيهِ؛ بُغْيَةَ عدمِ التفكيرِ في أيّ شـيءٍ بعد ذلك.

كان يشـعرُ بالحزن الشـديد من جَرَّاء تلك الحال التي وصل إليهـا؛ لأنـه سـيأخذُ شـيئًا غير مملـوك لـه لأول مرّةٍ فـي حياته، أي سيسرِق شيئًا من شخص آخر.

سـار فـي الشـارع، لكنه لـم يكنْ يعلـمُ إلى أيـن، ومن أجل ماذا يسـير، وقال في نفسـه: "سـتكون المرة الأولى والأخيرة"،

ثمّ نزلَ عن الرصيف؛ كي يعبرَ إلى الجهةِ المقابلةِ، وعندما وصل إلـى منتصـف الطريـق، أدرك أنـه يسـير فـي الطريـق المخصّصة للسـيارات التـي أخذ أصحابها في اسـتخدام آلات التنبيـه لِلَفْتِ انتباهه؛ مما جعله يُسرّع من خطاه.

كان يشـعر بالجـوع منـذ أن طُرِدَ مِـن عمله، لم يكـن لِيُقْدِمَ على ارتكاب جريمة السـرقة من أجل نفسـه، بل أَقْدَمَ على ذلك مـن أجل أبنائه، فهو لم يسـتطـع أن يُفاتـحَ أحدًا بخصوصِ حالته المادِّيَّة لطلبِ المساعدة.

خيَّـم الظـلام بالكامـل علـى شـوارع المدينـة، وعندما حان الوقت الذي كان ينتظره، خرج من المكان الذي اختبأ به، واقترب من المَتْجَر وشـعور الخجل يساوره، بل يطارده، فهذا المكان هو مطعم صغير وضـع نُصْبَ عينيه سرقتَه.

نظـر حولَـه قبل أن يُخـرج المِفَكّ الذي كان فـي جيبه، ولـم يكـن أحدٌ يسـيرُ في الشـارع في هذه السـاعة، ظـنّ حينها أن هذا الوضـع سـيريحُ ضميرَه، لكن إحساسًـا كان بداخلـه يعصِر قَلْبَه وكأنَّ أحدهم يراقبه.

فقـال في نفسـه: "لماذا تخـاف؟"، لكن قلبَه لـم يطمئنّ لهذا الأمر، وحدَّث نفسه قائلًا: "ماذا لو شاهدني أحد؟"، وصار جِسمُه

مِثلَ الثلج، وساوره خوفٌ من أن يراه أحد وهو على تلك الحال، وكان إحساسٌ لا يعرِفُ مصدَرَه يقول له: "إنَّ أحدًا يتعَقَّبك".

أخرَجَ المِفكَّ الذي كان يضعُه في الجيب الداخلي لسُترَتِه، وكَسَرَ قُفْلَ الباب بضربةٍ واحدةٍ بمفكّه، وبينما كان يدخُلُ من باب المطعم، قال بصوت خافت: "سامِحْني يا أوسطا عثمان!"، وشَعَرَ في تلك اللحظة أن شيئًا قد كُسِرَ بداخِلِهِ مع الباب المكسور، وأَحَسَّ بوجعٍ شديدٍ في قلبه.

أغلقَ البابَ وراءَهُ بعدَ دخولِ المطعم، فهو الآن داخل المطعم، واقترب في صمتٍ من المنضدةِ التي تُوضَع عليها الخزينة، ولا يزال يُراوِدُه شعورٌ بأن هناك أحدًا يُراقِبه، فنظر إلى يمينه ويساره مجدّدًا، فوجد أن الضوءَ الموجودَ أعلى الآلةِ قد تُرِك مفتوحًا تجنُّبًا لأي أعمال سرقة.

ثارت ثائرته، وقال في نفسه: "مَنْ سيراني في ظُلمة الليل الحالك!"، لكن الشعورَ الذي كان يراوده -بأنه مراقَبٌ- ما زال يلازمه.

أحسَّ أن عليه الإسراعَ، فاقتربَ ووقفَ أمامَ آلة تسجيل النقود، وبينما يَهُمُّ بفتح الآلة، لفتت انتباهَهُ عبارةٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ كبيرةٍ على لافتةٍ بجوار الآلة، جاء فيها: "انتبه يا أوسطا عثمان!".

فقال في نفسه: "ولماذا سينتبه؟!"، فشعر بشغفٍ دفعه لقراءةِ بقيَّـةِ العبـارة، فنظر إليها مرّة أخرى وقرأ: "لا تُخطِئْ في حسـاب مستحقات العميل".

وكان صاحـب المطعـمِ قد كتـبَ هذه العبارةَ لتذكيرِ نفسـه، وعَلَّقَها بجوار آلة تسـجيلِ النقـود في مكانٍ لا يراه العميل، ولقد تأثر هذا اللصُّ الذي أقْدَمَ على سـرقة المطعم بمشـاعر «أوسـطا عثمان»، وخوفِه من أن يَحْسُبَ مستحقات العميل بطريقة خاطئة.

لم يستطـعِ اللصُّ أن يمدَّ يده إلى خزينة النقود، وتولَّدت لديه رغبةٌ غريبةٌ في متابعة قراءة عبارة «أوسطا عثمان» التي جاء فيها: "مَـنْ خَلَـقَ العينَ يراها ويـرى ما تَراه العينُ، ثـم يُعْطِي ويَهَب"، نعـم، إن صانِـعَ النظاراتِ يتأكَّد أوّلًا من ملائمة النظارة لوجهك، ثـم يقـوم بتركيـب العدسـات عليها، فمَـن أعطاك الأذن يسـمعُ ما تسمعه بالطبـع، ثم يَهَبك إياها، وقِسْ على ذلك سائِرَ حواسِّكَ الأخرى، وهو لا يُعطي لك حاسَّـة أو خاصِّيَّةً لا يتمتَّع بها، فمن أعطـاك البصر هو أيضًا بَصِير، ومـن وَهَبَك العين يراها ويرى بها ما تراه أنت كذلك.

أنهـى اللـصُّ قـراءةَ العبارةِ إلـى آخرهـا دون أن يَشْـعُرَ، ثم سـيطرت عليه حالةٌ مـن الصمتِ الرهيبِ وعـدمِ الحركةِ، وبهذه

الحالة استطاعَ الوصولَ إلى مصدرِ الإحساسِ الذي كان يشعرُ به وهو أن أحدًا يراقبه.

ولا شَكَّ أن هناك ربًّا يرانا ولا تُدْرِكه أبصارُنا، وعندما عَلِمَ هذه الحقيقةَ، أو بالأحرى تَذَكَّرَها، قرَّرَ عدمَ مواصلةِ ارتكاب ما يفعل من خطإ.

أَنَّبَه ضميره من ناحية، ومن ناحية أخرى شَعَرَ بطمأنينةٍ وسعادة؛ لأنه تراجَعَ عن متابعة السرقة.

خطر بباله أن يهربَ من المطعم في أسرع وقتٍ ممكن، فوضع المِفَكَّ في جيبه، ثم خرج من المطعم بخطواتٍ سريعةٍ، وكان يهرولُ دون أن ينظر خلفه، وابتعد عن مطعم أوسطا عثمان لمسافة شارع.

تباطأت خُطواته بعد مدّة، وعندما وضع في حسبانه الضررَ الذي ألحقه بباب المطعم جنبًا إلى جنب مع ما قرأه في اللافتة التي رآها داخل المطعم، وقف وقال في نفسه: "إن من يرى كلّ شيءٍ رآني وأنا أكسر ذلك الباب"، ثم عاد إلى المطعم وجلس أمامَه، وانتظرَ مجيءَ أوسطا عثمان حتى الصباح، فقد عزم على الاعتذار إليه، وأن يَعِدَه بأن يدفع له تكاليفَ الخسائر التي تسبّبَ فيها بمجرد حصوله على أول نقودٍ يُرزَق بها.

وصلَ أوسطا عثمان إلى المطعم في الصباح الباكر، واندهشَ عندما رأى البابَ مكسورًا وحالةُ الشابِّ الجالس بجواره، وكانت نظرات هذا الشاب المكتئبِ الذي يجلس على الأرض في حالة مِن الخِذْلانِ، تحكي كلَّ شيءٍ، فأنهضَه أوسطا عثمان ودعاه لدخول المطعم.

بدأ الشاب بسرد تفاصيل ما حدث، فقابله أوسطا عثمان فقط بابتسامة عَلَتْ وجهه، ثم عرض على صديقه الجديد العَمَلَ معه في المطعم، وقَدَّمَ له بعضَ النقود.

تعجَّب الشابُّ كثيرًا من هذا العرض والنقود التي منحه إياها أوسطا عثمان، وعندما لاحظَ الأوسطا خَجَلَ الشابِّ مِن مَدِّ يَدِهِ لأخذ النقود، قال له:

- خذ هذه النقود، فهي أول سُلفة سَأَقْتَطِعُها من راتبك.

ثم وضعَ النقودَ في جيبِ الشابِّ.

وكانت هذه النهاية غيرَ متوقَّعةٍ تمامًا للشاب؛ حيث إن صاحب المطعم الذي كَسَرَ بابَه من أجلِ السرقةِ وَقَفَ أمامَه يَعْرِض عليه العملَ معه، بل ويمنحُه المالَ أيضًا، وأمّا أوسطا عثمان فلم يرغبْ في إطالة هذا الموقف المخجل للشاب، فقال له:

- اذهب الآن، واسترِحْ في بيتك، واشتَرِ لأبنائك ما تريد، ثم تعالَ غدًا في الصباح الباكر لتبدأ العمل.

لم يُصدِّق الشاب ما يحدث معه، فأمسك يد أوسطا عثمان وقَبَّلها، ثم خرجَ من المطعم وهو يجري ويقفزُ كالطفل الصغير.

وأما أوسطا عثمان فكان يمسحُ دموعَهُ التي لم يستطع السيطرةَ عليها وهو يشاهدُ الشابَّ وهو يركضُ فرِحًا في الشارع.

دُنيا الشاورمة

نَفَذَ الضوءُ من الزجاج إلى داخل الغرفة، وأخذ ينعكسُ على الجدران، ويظهرُ حينًا ويختفي حينًا آخرَ، كالأطفال الذين يُهروِلُ بعضُهم وراءَ بعض، وعلى السرير الموجود في ركن الغرفة توجد وسائدُ مزخرفةٌ تَتَّخِذُ مكانًا لها وكأنّها أطفالٌ يجلسون في هدوءٍ وسكينة، والأزهارُ المصطفَّة جنبًا إلى جنبٍ تُضفي جوًّا بَدِيعًا على الغرفةِ، بالإضافة إلى رائحةِ الرَّيحان الموجود في قطعة القماش الجميلة التي شَغَلَتْها السيدةُ حسيبةُ باهتمامٍ كبير...

كان هارونُ مُسْتَلْقِيًا على جَنْبِهِ على الأريكة كالقطَّةِ المستلقية بجوار المدفأة، ينظر إلى الظلال الموجودة على الجدار بِمَلَلٍ وضَجَرٍ.

لم يكن هارونُ يرى ما حوله جيّدًا؛ بسبب زيادة حركة رموشه، وكان ذلك يضايقه كثيرًا، فهو في انتظار الحصولِ على نظارته الجديدة اليوم، وبعد أن تنهّد تَنهُّدًا عميقًا مثل كِيرِ الحدَّادِ، قال: "أُفٍّ! لماذا لا أرَى في هذه السنّ الصغيرة وكأنني عجوزٌ قد أدركته الشيخوخة! لماذا الآلامُ دومًا تختارني أنا بالذات؟!".

ثم تَحَرَّكَ يَمْنَةً ويَسْرةً، وتَوَقَّفَ مكانَه فوقَ الأريكة.

التفتتْ إليه والدتُه، وقالت:

- نعم، هل تقول شيئًا يا هارون؟

فَرَكَ هارونُ عينيه قائلًا:

- لا يا أمي، كنتُ أُحَدِّث نفسي.

كان قلب السيدة حسيبة يعتصرُهُ الألمُ لرؤية ابنها هارون مكتئبًا، وكانت تشعرُ بِشَغَفٍ لمعرفة ما الذي يضايقه، لكنها خشيت أن تسأله حتى لا يردّ عليها ردًّا غير مناسب، فكلّما سألَتْهُ عن شيءٍ يكونُ ردّه "لا شيء يا أمي"، ولعِلْمِها بطبيعة ابنها، لم تكن السيِّدة حسيبةُ ترغبُ في الضغطِ عليه أكثرَ من ذلك.

شَعَرَ هارونُ بالملل من النظر إلى سقفِ الغرفة، فتناول الوسادةَ التي كانت تحتَ رأسِهِ ووضعها على عينيه، ولم يُسْهِمْ ذلك في زوال هذا الشعور بالاكتئابِ، وكانت عيناه تُؤلِمانِهِ وكأنه يضعُ أصابعَهُ فيهما، أدرك هارونُ بعد مدّةٍ أنه لا جدوى من الانتظار أكثر من ذلك، فنهض من على الأريكة، وقال:

- أَخْبَرَني صانع النظارات أن أذهب إليه بعد ساعتين لاستلام نظارتي الجديدة.

ثم أخذ سِتْرَتَهُ، وتوجَّهَ نحو الباب، فقالت والدته:

- خيرًا يا ولدي، إلى أين أنت ذاهب؟

فقال هارونُ وهو يرتدي سترته:

- سأذهبُ لاستلامِ نظارتي.

ولما خرج من المنزل وجدَ السماءَ تُمْطِر مطرًا خفيفًا، وقد عانى كثيرًا كي يرى قطراتِ المطرِ الساقطةِ من السماء، ثم تَمْتَمَ قائلًا:

- ما هذا الحظّ؟! عيناي تؤلماني، ولا أرى إلا بصعوبة، وأشعر بضجرٍ شديدٍ، وعلاوةً على ذلك فإن المطر يهطل الآن.

ثم تبادرت إلى ذهنه بعض الأسئلة من قَبِيل: "لماذا كلُّ شيءٍ يحصلُ بشكلٍ متتابعٍ هكذا؟ لماذا لا يمكننا أن نعيشَ في هذه الحياة دونَ آلامٍ أو مشاكلَ؟ لماذا يصيبُنا هذا الألم؟"

سمع في هذه الأثناء صيحاتٍ تقول: "الدنيا دوَّارة! الدنيا دوّارة!"، فأخرجَتْه من جوِّ الأفكار التي كانت تسيطر على عقله، ثم قال:

- نعم هي دوَّارة، أعلم ذلك، ولكن هل هذا يستلزم الصياح لهذه الدرجة؟ إنها الدنيا؟

تقدَّمَ هارونُ نحو مصدر الصوت، فإذا به يرى نادلًا يصيح أمام المطعم الذي يعمل به، فأَدْرَكَ حينها أنه يسيرُ أمام مطعمٍ

لبيع الشاورمة، فضحك على نفسه؛ لأنه فَهِمَ ما قاله النادل خطأً، وفي تلك الأثناء شعر بالجوع، وكان نادل ذلك المطعم -الذي لم يلحظه قبل ذلك- يصيحُ من أجل جذب العملاء.

اقتـرب هارون من المطعم، وحاولَ قراءةَ العبارات المكتوبة أمـام واجهتـه بصعوبـةٍ بالغـةٍ، وكان مكتوبًـا عليهـا: "شـاورمة بالبسبوسة".

وعندما اسـتطاع قراءةَ العبـارة المكتوبة على واجهة المطعم بالكامـل، اعترتْـهُ حالة مـن الاندهاش، فـرك عينيه، ثـم نظر إلى الواجهة مَرةً ثانيةً، وعندما قرأ الشـيءَ ذاتَهُ مجدّدًا، قال في نفسـه: "شيء عجيب! يبدو أن هذا نوع جديد من الشاورمة".

وحينمـا قرأ أسـماء أصنـاف المأكـولات الأخـرى ازدادت دهشـته: "لحمٌ معجونٌ بالعسـل، الكفتةُ النيئةُ بـالأرزِ والحليبِ، كبابٌ بالدبس، بلحُ الشام بالمخلّل".

لـم يسـتطـع «هـارون» أن ينظر إلى أسـماء الأطعمة أكثر من ذلك، وبينما هو يعودُ للخلف، قال في نفسه: "لا لا! هناك شيءٌ عجيب في هذا اليوم، ما هذا المطعم الغريب؟! لا يوجد أيّ طعام من النوع الحارّ أو المالح، كلّها أطعمةٌ حلوةٌ".

تعجَّـبَ هـارون كثيرًا من أسـماء المأكولات، كما سـيطرت

عليه حالة من الاندهاش؛ بسبب اسم المطعم، شعر بالحرج من دخول المطعمِ وسؤالِ النادلِ عن الأطعمةِ، واعتقدَ أن النادلَ سيَستَهزِئُ بكلامه، وأدرك أنه من المضحِكِ أن يقفَ أمام مطعمٍ ليس به طعام حارّ أو مالح، وقد نسي عينيه اللتين تؤلمانه، وفي هذه الأثناء شاهده نادلُ المطعم الذي انقطعَ عن الصياحِ لجذبِ العملاء، ومن ثَمَّ دعاه لدخول المطعم قائلًا:

- تفضَّلْ يا سيدي، لدينا بالداخل أنواعٌ من الحساءِ الساخنِ اللذيذ.

فعاجله هارونُ بالرد قائلًا:

- طبعًا طبعًا! فأنتم قد نثرتم فوق هذه الأنواع من الحَسَاءِ كمِّيَّة كبيرةً من السكّر المسحوق.

وكان النادل قد صُمَّتْ أُذُناه عن السمع؛ بسبب صياحه لجذب العملاء، فدنا من هارون، وقال له:

- ماذا طلبتَ يا سيدي؟

فردّ عليه هارون قائلًا:

- لا، لم أطلب شيئًا! ركِّزْ أنت في عملك... أنا لا أعلم ماذا أقول.

ثم عاود السَّيرَ مجدّدًا.

رفع النادلُ يَدَه لتوديع هارون، وقال:

- حسنًا يا سيدي، لا تنزعج منِّي.

فرد هارون في نفسه قائلًا: "انظر! لقد بدأ بالتودُّد إليَّ الآن".

ثم أسرع في خطواتِهِ، وهَمْهَمَ وهو يسيرُ:

- لقد أصبحتُ أشتهي الأكلَ الحارَّ، يا لها من أيّام، ما هذه الحالةُ الغريبةُ التي صِرتُ عليها؟!

وبينما هو يتقدَّمُ في طريقه، سمع نادل المطعم يصيح مجدّدًا:

- دنيا الشاورمة، دنيا الشاورمة.

تقدّم الوقت سريعًا دون أن يشعُرَ هارونُ، وقال في نفسه وهو يبتعد عن المطعم: "أعتقدُ أن هذه هي الدنيا التي أبحثُ عنها، ليس بها أيّ شيء مُرّ، فأصحاب المطعم غيَّروا حتى طعم المخلل، وأضافوا إليه بلح الشام!"، لكنّ مَعِدَتَهُ لمْ تتحمّل حتى ما قاله، وحاولَ نسيانَ كلِّ هذه الأشياء سريعًا.

عندما وصل إلى صانع النظارات، وَجَدَهُ قد انتهى من إصلاح نظارته، وما أن لبس النظارة حتّى أحسّ بتخفيفِها الآلامَ التي كان يشعر بها، فالآن هو يشعرُ بالراحة أكثر من ذي قبل، وأدرك وقتها كيفَ أنّ الرؤيةَ شيءٌ جميل.

لقد ازداد هطولُ الأمطار عندما كان هارونُ عائدًا إلى المنزل،

وعندما مرّ عائدًا من أمام مطعم «دنيا الشاورمة» لاحظَتْ عيناه مجدّدًا قائمةَ المأكولاتِ، وأدركَ هارونُ حينها أنّه لمْ يقرأْ أسماءَ الأطعمة كلًّا على حِدةٍ، بل قرأها مُتَّحِدةً، فهي على النحو التالي:

- بسبوسة
- شاورمة
- أرز بالحليب
- كفتة
- كباب
- بلح الشام
- مخلل
- إفطار الصباح (عسل، دبس، مربى، زبدة...)

ضحك هارون على فِعْلته تلك، ثم تَوَجَّهَ صوب البيت والأمطارُ تَهطِلُ بغزارةٍ، لكنه الآن لا يشتكي من المطرَ، بل إنه بدأ يستمتعُ بقطراتِهِ الغزيرة.

ولما تذكَّر هارونُ شكواه في الصباح، أيقنَ أن هذه الدنيا فيها الحلوُ والمرُّ، والأيامُ السعيدةُ والحزينةُ، وأنه كما أنّ الصحةَ مهمّةٌ، فإن المرضَ أيضًا لا يستهان به.

وبينما كان المطرُ يُدخِل الطمأنينةَ إلى قلبِ هارونَ، أخذ يَحْمَدُ الله على كل شيء في هذه الدنيا حُلوِها ومُرِّها.



تفاءل بالخير تجده

أشـرقت الشـمس، لكنَّ الجوَّ كان لا يزال باردًا، فقد شهدت المدينـةُ موجـةً من الصقيـع في الليـل، فقد أصـابَ التجمُّدُ كلَّ شيء.

بادَرَ السـيد أحمد إلى النهوض من فراشـه من أجل الذهاب إلـى العمل، لكـنّ برودةَ الجـوِّ حالت دون ذلك، أَخـرجَ أصابـعَ قدميـه خارجَ اللحاف قليلًا، ثـم أدخلها ثانية، فقال والزفيرُ يخرجُ من فمه: "يا إلهي ما هذه البرودة!"، أرادَ البقاءَ في السريرِ لبضـع دقائق من أجل أن يشعُرَ جسدُه بالدفـءِ تحت اللحاف.

في هذه الأثناء سـمع صـوت طَقْطَقَةٍ، فَفَهِـمَ أن زوجته تُعدّ طعام الإفطار في المطبخ، نهضَ من فراشـه بعدما أدرك أن بقاءه لمـدّة أطـول سـيؤخِّره عن عملـه، فارتـدى ملابسَـه، وخرج من الغرفة.

ثم ذهب إلى الحمام كي يغسـلَ وجهَهُ، لكنّه آثر غسـيلَ يديه بسـرعة، ثم مسـحها بالمنشـفة، خشـيَ أن يغسـلَ وجهَهُ من شدةِ البـردِ، فقـد أدركَ ذلك عندما لامسـتْ يداه مياه الصنبور شـديدةَ البرودة، ثم مضى مُسرعًا إلى المطبـخ، وما أن دخله، حتى وقعت

عيناه على المدفأة، فتَمَلَّكَه الغضب، وتحرَّكت شفتاه، بَيدَ أنه لم يُدرك أكان يتفوّه بكلمات أم كانت أسنانُه تَصْطَكُّ ببعضها من شدِّة البرد؟ اعتقدت زوجتُه أنَّه يتحدَّثُ إليها، فبادرته قائلةً:

- نعم يا عزيزي، هل قلتَ شيئًا ؟

- لا يا عزيزتي، ما هذا العطل الذي أصاب المدفأة في هذا البرد الشديد؟

- لا أعلم، لكن بالتأكيد أن لله حكمةً في هذا، لا تنزعجْ.

- ما الحكمةُ في ذلك؟ لقد أصبحنا نشعرُ بالبرد القارس داخل المنزل كما ترين، وهل لديّ وقت فراغٍ كي أتَّصلَ بخدمة الصيانة وأنتظرهم حتى يصلحوا العطل؟

- لا تقلقْ، سيأتي عمَّالُ الصيانة اليومَ لإصلاحها، لن يحدثَ شيء إن قضينا اليوم دون تدفئة، سأرتدي بعض الملابس الثقيلة، وإن اشتدّ البرد أكثر، سأذهب للجلوس عند الجيران، وحتى ذلك الحين يكون فريق الصيانة قد وصل وأصلح الأعطال بالمدفأة.

ارتشفَ السيّد أحمد رشفةً من كوب الشاي بعد أن حرّك الملعقةَ داخل الكوب بصعوبةٍ بالغةٍ من شدّة البرد، ثم قال:

- لا فائدةَ من ارتداء الملابس الثقيلة في هذا البرد الشديد... انظري إلى أسناني تصطكّ ببعضها وكأنها آلة موسيقية من شدّةِ

البرد! هل بإمكاننا أن نشعر بالدفء بمجرد ارتداء الملابس الثقيلة؟!

- لا تَقُلْ هذا يا عزيزي، فَكِّرْ بهدوءٍ قليلًا، هناك حكمة لذلك لا محالة.

- على أيّةِ حالٍ يا حبيبتي، لا أريدُ أن أدخل معك في جدال ثانية.

ووضع السيّد أحمد بعض اللقيمات في فمه، وارتشفَ رشفةً من كوبِ الشاي، وذهب إلى الحمام وهو يحمل كوب الشاي بيده ويتلمّسُ الدفء من حرارته، ومضى مسرعًا خشيةَ أن يتأخر عن العمل، وهو في تلك الأثناء يتابع الحديث إلى زوجته:

- آه، لقد احترق فمي! ما هذا يا عزيزتي؟ حتى كوبُ الشاي يغلي، هل يمكن أن يكونَ الشايُ ساخنًا لهذه الدرجة؟!

- الآن أصبحتُ أنا المذنبة بسبب هذا أيضًا!

- علي أية حال، سأخرج الآن، أعانكِ الله! إن حدثَ شيءٌ اتصلي بي على الهاتف، مع أنني أعطيتُ شركةَ الصيانةِ رقمَ هاتفي في العمل، فسيتصلون بي.

وبينما يَهُمُّ بالخروج من المنزل، انزلقت إحدى قدميه وكاد يسقط؛ بسببِ الصقيعِ المتراكم على الأرض، وحينها قال:

- كادتْ رجلي أن تنكسرَ بسبب الصقيع!

ثم بدأ يسير بطريقةٍ أكثر حذرًا.

بيد أن معنويات السيّد أحمد انهارت؛ بسبب تعطّل المدفأة، وأصبح يثورُ على أيّ شيء، ثمّ تذكّر ما قاله أصدقاؤه: "لا تفهمْنا خطأً يا سيّد أحمد، لكنّك تغضبُ سريعًا لأتفه الأشياء، اهدأْ قليلًا، وحاوِلْ تغييرَ نظرتِكَ إلى الأحداث، انظر دائمًا إلى ما حولك بعينين باسمتين، وعَوِّدْ نَظَرَكَ على رؤيةِ كلِّ ما هو جميل، وإلا فإن طريقتك هذه في التعامل مع الأحداث ستتسبّبُ أحيانًا في فهمك الخاطئ لما يحدث حولك". ثمّ تبسّم ضاحكًا، ومضى في طريقه.

قالوا له ذلك كثيرًا، لكن تصرفاته لم تكن قابلة للنقاش بالنسبة إليه، فقال في نفسه: "يريدونني أن أرى كلَّ شيء جميلًا، وأن أُفكِّر بإيجابية؛ كي أصيرَ سعيدًا، هيهات!" ثم كرر هذه الكلمات كثيرًا حتى بدأ يَلُوكُها في فمه كالعِلْكَةِ، بدا كأنّه يضحك، لكنَّ براكينَ كانت تثور بداخله دون سببٍ معلومٍ، وكأنَّه يتحيَّن فرصةَ ظهورِ أحدِهِم أمامَه ليصيحَ في وجهه.

واصل إصرارَه على مقولتِهِ التي يردِّدها دائمًا: "لا يمكن معاملةُ الناس معاملةً حسنةً، يجب عَلَيَّ زجرهم، ومعاملتهم بقسوةٍ حتى يُنفِّذوا ما أريد"، سار السيد أحمد بسرعة إلى

محطّـة الحافـلات حتى لا يُضيّـع مزيدًا من الوقت، وعندما عانى في الحافلة من الأشـخاص الذين يدوسـون علـى أطراف قدميه، والازدحام المتكرر في إشارات المرور؛ زاد ذلك من سُخْطِه عند دخولِهِ مقرَّ عمله.

خطرَ بباله إكمالَ الأعمال التي تركها قبل أن يُتمَّها في الأيام الماضيـة، علـى الرغم من انهماكه في العمـل طوال اليوم لم يَنْجُ من جوّ التوتّر الذي سـيطر عليه طوال الليل، وعلى الرغم من أن أصدقاءه في العمل داعبوه قائلين: "خيرًا إن شاء الله، ما لك اليوم مبتهجًا سعيدًا؟" إلا أنه لم يتخلّص من توتُّره.

جالـت في خاطره طوال اليـوم عباراتٌ ناقمةٌ على الأحداث التـي يمُر بها، مـن قبيل: "لماذا ينبغي ليَ التصرفُ بسـماحةٍ مع ما يحدث؟ لماذا عَلَيّ أن أبتسمَ؟ ماذا سأكسبُ إن فعلتُ ذلك؟ من يريد أن يحبنّي فليحبني بطبعي هذا! هل يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ التبسّم عندما تتعطَّلُ المدفأة في الصباح؟ أم عَلَيَّ التبسم عندما أُحشَرفي الزِّحام داخـلَ الحافلـةِ أثناءَ الذهاب إلـى عملي؟ أم ينبغي لـي التصرّفُ بحسـن خُلُقٍ مـع مَنْ يركب معي الحافلة وفمُـه تفوحُ منه رائحةُ الثوم الذي أكله؟ ثم يقولون لي: لا تغضب!".

انكبَّ السـيد أحمد يمارس عمله حتى تخلّص من كافّة هذه

الأفكار، إلى أن رنَّ جرس الهاتف مَرَّات عديدة؛ مما جعله ينتكسُ ويعود إلى حالته العصبيّة التي لازمَتْهُ منذ الصباح، وعندما لم يردّ أحد على الهاتف، التفتَ إلى الطاولة التي عليها الهاتف، وحينها أدرك أنه لا أحدَ غيره جالسًا في المكتب؛ فجميع أصدقائه قد غادروا مَقَرَّ الشركة عندما انتهتْ ساعات العمل الرسمية، فقال بعصبية:

- لماذا رنَّ هذا الهاتف طويلًا هكذا؟!

نسيَ حتّى العمل الذي كان منشغلًا به، ونهض مسرعًا من مكانه قائلًا:

- سأرد على الهاتف وأُلقِّن هذا المتصل درسًا لن ينساه أبدًا،

كان عازمًا على أن يصيح في وجه من يتصل، ويقول له: "ما الذي تفعله يا صاحِ؟! عليك ألَّا تُصِرَّ على الاتصال ما لم يَرُدَّ عليك أحد، لماذا تُكرِّر الاتصال وتُزعجنا، كالطفل الذي اشترى له أبوه صَفَّارةً جديدة؟!".

رفعَ سماعةَ الهاتف، فإذا بالمتصل يقول:

- أريدُ التحدُّثَ إلى السيّد أحمد لو سمحت.

وعندما سمع كلام المتصل، نسيَ كلّ ما كان يفكِّرُ فيه.

- نعم، أنا أحمد.

- نعم، يا سيدي، لقد جئنا إلى منزلكم، ولم نجد أحدًا يفتح لنا الباب، ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- هل يوجد أحدٌ في المنزل؟!

- ...

خشي السيد أحمد أن يكونَ حدثَ شيءٌ لزوجته، فكَّر قليلًا، وخمَّن أن تكون قد ذهبت إلى الجيران كما قالت في الصباح، فقال لمندوب شركةِ إصلاحِ الأعطالِ:

- انتظروا قليلًا، سأطلبُ من زوجتي أن تفتحَ لكم الباب حالًا، وأنا سأحاولَ العودةَ إلى المنزل.

اتَّصلَ بجاره، وعندما علم أنَّ زوجتَهُ قد ذهبت عندهم للتدفئة أبلغها أن فريقَ الصيانة ينتظرون أمام الباب، وطلب منها الذهاب إلى المنزل من أجل فتح الباب لهم، ثم غادر المكتب مسرعًا عائدًا إلى المنزل، وفي طريق العودة تَذَكَّرَ تعصُّبه في الهاتف، فضحك على حاله.

وعندما وصل إلى المنزل وجد فريقَ الصيانة قد أصلحَ أعطالَ المدفأة، وكانوا على وشك المغادرة وابنه الأكبر يودعهم، استطاع السيد أحمد أن يسمع آخر كلماتٍ قالها فريق الصيانة، والتي جاءت على النحو التالي:

- لحسن حظِّكم أنكم اتصلتم بنا حتى نأتي لإصلاحِ المدفأةِ.

فقال السيد أحمد في نفسه: "طبعًا هذا جيّدٌ لكم؛ لحصولكم على مبلغٍ كبيرٍ من المال نظيرَ إصلاح المدفأة".

فَطِنَ السيّد أحمد إلى أن ما حدث لم يكن كما كان يعتقد؛ لأنه عندما دخل المنزل علمَ أن عُطْلَ المدفأةِ حدثَ نتيجةَ انسداد المدخنةِ من جراء سقوط عُشِّ طائرٍ بداخلها، وهو ما كان سيؤدّي إلى حدوث تسرّبٍ في الغاز وموتِ كلِّ أهل المنزل إذا لم يتَّصلوا بشركة الصيانة.

بالإضافة إلى أنّ فريقَ الصيانة لم يتقاضوا قرشًا واحدًا نظير إصلاح المدفأة؛ لأنّ الضمانَ كان لا يزالُ ساريًا.

أدرَكَ السيد أحمد في ذلك اليوم أنه أخطأ مرّةً أخرى في تَقِييمِ حجمِ الأمورِ، وشَعَرَ بالأسى على حاله المُضحك، فكَّرَ في الحالة التي أصبح عليها؛ بسبب إصراره على العيش في عالم الأوهام، وعدمِ النظرِ بتفاؤلٍ واستحسانٍ إلى الناس والأحداث، ولم يكن يتوقَّع أن يَصِلَ به الأمر إلى تلك الحال، لا سيما عندما كان من حولَه ينصحونه بقولهم: "إذا نظرتَ إلى ما حولك بنظرة تفاؤُلٍ ستفكرُ بشكلٍ أفضل، وحينئذٍ ستستمتعُ بحياتك كما يجب".



الصديق وقت الشُدة

أشــجارُ العَرْعَـر[1] المُتمايِلـةُ بجـوار مَجْـرَى النهـر المُتدفّق والمُتَعَـرِّج كالطريـق، وأشـجار الصَّفْصـاف[2] التي تُشْـبِه الطفلة التي يُحرِّك الهواءُ شَـعرَها يَمْنَةً ويَسْـرَةً... وعُـواءُ الذِّئاب القادمةُ من وراء الجبال... وعَبِيرُ الأزهار الجميلة التي تأسِرُ القلوب...

كُلُّ هـذه الأمور لم يكـن عثمانُ معتادًا عليها، فما كان يعرفه جيّدًا هو الغسـيل المتدلّي من شرفات المنازل، وصناديقُ القمامة المتراكمةُ في أركان الشـوارع، ورائحةُ احتراقِ الجازولين[3] التي تفوح من عوادم السيارات.

---

(١) العرعر: نوع من أنواع الأشجار من فصيلة السّرو، ذو منظرٍ رائع، ورائحة زكية، وثمرٍ فـي طعمـه مرارة بعد تذوّق الحلاوة، ويُستخدم ثمره في الطب كعلاج لكثيرٍ من الأمراض ويُستخرج من ورقه زيتٌ ذو منافع متعددة.

(٢) شـجر الصفصاف: من الأشجار المدهشة وشـديدة الجمال، تتميّز بأوراقها الجذابة، وأغصانها المتهدّلة، وخضرتها الكثيفة، وتلوّنِ ألوان أوراقها تبعًا للموسـم، بألوان متعددة، ولها أكثر من خمسمائة نوع.

(٣) الجازولين: كلمة تُطلق على كلِ مشـتقات البترول وهي كلمة انكليزية "GASOLINE" ثم أصبحت تُستخدم بالعربية بعد أن أُدخلت عليها.

ازدادت وحشتُه ومخاوفه مع حلول الظلام، وازدادت أكثر عندما رأى أوراقَ الأشجار المتدلية من الأغصان كالخفافيش، وشعر ببرودةٍ شديدةٍ، وإذا به يسمع صوتًا خافتًا فيوجِّه ضوء المصباح الضعيف صوب مصدر الصوت، وينظر إليه بخوف وقلق شديدينِ، وكان يحاول أن يخفف الأمر على نفسه قائلا: "لا لا، لا ينبغي أن أخاف!" لبضع دقائق فقط.

كان رئيسُ فِرْقةِ الكشّافة قد أرسله برفقةِ أحد أصدقائه للوصولِ إلى طريق المعسكر، ولكنّه قد أرسل كلّ واحد منهما في طريقٍ مختلفةٍ عن الآخر؛ أَمَلًا في أن يَصِلَ كلُّ واحد إلى المعسكر بمفرده، ولكنه لم يستطعِ الوصولَ إلى موقعِ المعسكر بعد مرورِ ساعاتٍ، بالرغم من أنه كان من المفترض أن يَصِلَ إليه في غضون ساعةٍ واحدةٍ، وعندما أدرك صاحبنا أنه لن يعثر على مكان المعسكر وأنه قد تاهَ في الغابة، خارت قُواه من التعب، فاستلقى إلى جوار إحدى الأشجار، فلم تَعُدْ قدماه قادرتَينِ على مواصلةِ السير.

وبينما هو يُمَدِّدُ رجليه ويجلس على الأرض تذكّر الحوار الذي دار في الصباح: "أرأيت كيف عاملني قائدُ الفرقة بوقاحة

وساوى بيني وبين علِيّ، على حدّ قوله: إن صداقتَنا ستظلُّ قائمةً سواء داخل المعسكر أم خارجَه، وسيحمي بعضُنا بعضًا من المكاره.....!

أَفَاقَه عُوَاءُ الذِّئابِ القادمُ من أعماقِ الغابةِ في جوٍّ من الأفكار التى غاص فيها، وازداد خوفُه مع حلول الظلام، وعندما أَيْقَنَ أنه لن يستطيعَ العودةَ، جَمَعَ بعضَ أغصانِ الأشجارِ جنبًا إلى جنبٍ وأشعل فيها النار، ثم أخرجَ غطاءً ووسادةً من حقيبة ظهره، وجلس بجوار النار التي أوقدها، وبدأ ذهنه يرسُم أشكال الذئاب بواسطة الظلالِ التي أحدثتها النار؛ وهو ما زاده خوفًا إلى خوفه، كان يُفكِّر في كلامِ قائدِ فِرقة الكشّافةِ بينما كان يراقبُ اشتعالَ النار، وكأنّ هذه الأفكار والخيالات قد خرجتْ من وسطِ النار، وسرعانَ ما اختفتْ فجأةً:

- اسمع يا عثمان، لقد شكَّلْتَ ثنائيًا جيِّدًا جدًّا مع علِيّ، فينبغي على كلٍّ منكما حماية الآخر داخل هذه المجموعة الصغيرة.

- يا إلهي! ماذا سنستفيد من ذلك؟!

- أنت مخطئ! بإمكانِكُمَا تبادُل الأفكار فيما بينكما وإصلاح أخطائِكما سويًّا.

وكان صوتُ النار يشاركُ من حِينٍ لآخر في هذا الحوار، وقد حان الدورُ على عثمان الآن:

- نعم!

كانا يتكلمان مع قائدِ الفِرقةِ وكأنهما يساوِمانِهِ على شيء.

- لا تحتقرِ الأمرَ بهذا الشكل.

- ماذا تقصد؟ هل سيخبرني عليٌّ بخطئي؟!

إذا رأى إنسانٌ عقربًا على ظهر صديقه، وقال له ذلك هل يكون قد أخطأ؟ كذلك الأخطاءُ التي يرتكبها الناسُ كالعقارب، فالعقارب تتسلَّلُ إلى جسدِ الإنسان في سرِّيَّةٍ تامّةٍ دون أن يشعرَ بها أحد، وأعتقدُ أن تحذيرَنا الصديقَ بشأن أخطائه ليس سوى إحسانٍ إليه.

ومرّةً أخرى، أَخْرَجَ عُواءُ الذئابِ عثمانَ مِن جوِّ الأفكارِ التي سيطرتْ على عَقْلِه في ظلمة الليل الحالك، وشَعَرَ أن جميع عضلاته قد أُصِيبت بالتشنُّج دُفعةً واحدة في هذا الظلام، وسقطت بعض العَبَرَاتِ مِن عَينَيهِ، وسيطرت عليه حالةٌ من الندم، وقال في نفسه: "يا ليتني استمعتُ إلى كلامِ قائدِ الفِرقةِ، ولم أَنفصلْ عن عليّ".

ثم غطَّى جسَدَه حتى رأسِهِ بغطائهِ كالطفل الصغيرِ في محاوَلةٍ منه للتخلُّصِ من الخوفِ المسيطرِ عليهِ، ثمّ شَعَرَ بصوتِ طَقْطَقةٍ، وكان الصوتُ يقترب منه تدريجيًا، كان يريدُ أن يستكشف المكان المحيط به، لكنه لم يكن يرى ما وراء الأحراش، فكيف لو رأى؟!

إنه كان خائفًا إلى الحد الذي كان لا يستطيع معه أن يُحرِّك ساقَيهِ المرتعدَتَين، بالإضافة إلى أنه كان لا يستطيعُ النظرَ بعينيه إلى المكان الذي يُصدر الصوت؛ أراد أن يصيحَ، لكنّ الخوفَ قد حال دون ذلك، وأحسَّ كأنه في كابوس مروّع، ماذا يمكنه أن يفعل؛ إذ إنه لم يَدُرْ بخَلَدِهِ احتمال مواجهة مشكلة من هذا النوع، وأيقنَ حينها أنه لا طائلَ من الندم على ما حدث، لكنه الآن يتمنّى لو أنّ أصدقاءه في فرقة الكشّافة الذين هرب من مرافقتهم، أن يكونوا إلى جواره.

اقترب الصوتُ بضعةَ أمتارٍ من المكان الذي يتواجد به عثمان "ما الذي يحدث في الخارج؟!"، خشيَ وقتَها من مُجرَّد التنفُّسِ، وحينما أدرك أن غطاءَهُ الذي يتمسَّكُ به بشدَّةٍ يتمُّ سَحْبه من على رأسه، فصاحَ قائلًا:

- النجدة.. النجدة.. الذئاب!

وبـدأ يُحرّك قدمَيهُ بـكلّ ما أُوتِيَ من قـوّةٍ، وبينما هو يصرخ ويصيـح، أيقـنَ أن الذئـابَ لـم تقتـربْ منـه، ففتح عينيـه اللتينِ أغلقهما بإحكام من شدة الخوف.

وواصل الصيـاحَ والصراخَ، لكنّه لم يكن يدرك لماذا يصرخ إلـى الآن! لا سـيّما أنـه لم يكن هنـاك ذئابٌ أو وحوشٌ مفترسـةٌ حولَـه كمـا كان يظنّ، فلم يكن أمامَه سـوى قائدِ فِرقةِ الكشّـافة، أمسـكَ القائدُ عثمانَ الذي بدوره أخذ ينظر حوله بنظراتٍ شاحبةٍ لفترةٍ طويلةٍ، وقال له:

- عثمـان! عثمـان! اهدأ؛ ليس ثَمّةَ ذئـبٌ، ألا تعرفني؟ إنه أنا قائدُ فِرقة الكشّافة.

ثم رجع إلى الوراء، وصاح قائلًا:

- تعالوا، لقد وجدتُ صديقكم.

وبعـد قليلٍ حضر علِـيٌّ وبقيّةُ الأصدقاء، وأشـار قائد الفرقة إلى علِيّ أن انظر إلى صديقك عثمانَ، وقال:

- لِحُسْـنِ حظِّك يا عثمانُ أن صديقك عليًا في الفرقة؛ فعلى الرغم من ابتعاده كثيرًا عن المعسـكر، إلا أنه قد آثَرَ أن يأتي إلينا ليُخبِرَنـا أنـك فارَقْتَه، وإذا لـم يكن فعلَ ذلك فلَرُبّما لـم نتمكّن من العثور عليك.

وأنهى القائدُ كلامه عند هذا الحدّ؛ كي لا يزيدَ من إحراج عثمان أمام أصدقائه، وتابع حديثه بقوله:

- هيا بنا لنعودَ إلى المعسكر حتى لا يقلقَ علينا سائر أصدقائنا.

أدرك عثمانُ حينئذٍ خطأَه الذي ارتكبه، في طريق عودتهم إلى المعسكر، وكان يضحك من حاله طوال الطريق؛ بسبب الأوهام التي جالت بخاطره: اعتقاده أن صوتَ الطقطقةِ ذئابٌ قادمةٌ لافتراسه، وركله قائِدَه الذي هَمَّ بسحب الغطاء من فوق رأسه لظَنِّه أنه ذئب، وصياحه للاستغاثة حتى بُحَّ صوتُه...



حكمة الذبابة

أمسك السيد صابر بفُرْشَاة الرسم الجميلة بيده اليمنى، وبعلبة ألوان الرسم بيده اليسرى، ثم تقدم بفرشاته إلى لوحته الفنية التي أمامه، ليُكملَ الرسمَ ويستخرجَ اللوحةَ بأبهى حلّة، فَلَمَسَ لمسةً واحدةً بالفرشاة على اللوحة، ثم تراجع إلى الخلف خطوة ليُمعِنَ النظر إلى اللوحة ثم أغمض عينيه قليلًا وكأنه خارجٌ من غرفةٍ مظلمةٍ إلى مكانٍ مضيءٍ، وجالَ بعينيه مرَّةً أخرى في اللوحة، ثم مدَّ مِقبض فرشتِه إلى الأمامِ ليختبرَ مقاسَ اللوحة.

تناول اللونَ الأبيضَ، ورغمَ كونِهِ باهظَ الثمنِ، إلا أنه استجمعَ قواه وأضاف مزيدًا منه على الطائر المرسومِ في لوحته، فقد بذلَ جهدًا كبيرًا لإتمام رسم هذه اللوحة، وسهر الليالي من أجل إنجازها، وكان الوقت قد تأخَّر هذه الليلة أيضًا، شَعَرَ بالإرهاق من جرّاء الوقوف على قدميه اللّتَينِ بدأتا ترتعدان من التعب.

توجَّـه إلـى النافذة كي يطـردَ النوم من عينيه، وشـعر بارتياحٍ عندمـا استنشـق الهواءَ النظيفَ القـادمَ من الخـارج، وما أن فتح زجـاجَ النافـذةِ، حتـى رفعت القطّـة التي كانت تقف في الشـارع رأسَها ونظرت إليه، لمْ يلحظِ القطَّةَ في بادئ الأمر، لكن سرعان ما جذب انتباهَهُ النورُ الساطـع من عينيها في ظلمة الليل الحالك، فتنهّد قائلًا: "يا له مِن لونٍ مميّزٍ! فلو حاولتُ أن أضيفَ لونًا كهذا على لوحتي فلن أُفلح".

شعر بالملل لعدمِ وجودِ ونيسٍ يتحدَّثُ إليه، فلما رأى القطَّة في الشـارع، بدا وكأنّه سـيحدِّثُها قائلًا: "يا أستاذ، كيف حالك؟" ثم دخل متمتمًا "ما لَكَ يا صابر، ما الذي يحدث لك؟!".

عـاد إلـى الغرفـة، وتنـاول علبـة الألـوان والفرشـاة واتّجـه إلـى لوحته مجدّدًا، وفي تلك الأثناء دخلت من النافذة المفتوحة ذبابةٌ سـوداء، شـعر صابر بالتوتر بسـبب صـوت الذبابة ووقوفها علـى لوحتـه، واحمـرَّت عينـاه غضبًا بعدمـا حطّت هـذه الذبابة السوداء الكبيرة بعد ثوانٍ معدودة على أكثر جزءٍ بياضًا في لوحته، فلم يسـتطـع ابتلاع ريقه من الدهشـة والغضب، وتَسَمَّرَ في مكانه لا يتحرّك وكأنَّ على رأسه الطير.

واعتقد أن الذبابةَ لو بقيت قليلًا على لوحته ربما تلتصقُ بها وتفسدُها، فصاحَ وهو يلوِّح بيده أمام اللوحة:

- ماذا تفعلين أيَّتُها الذبابة؟!

وتَذَكَّرَ صابر أن فُرْشاة الألوانِ بيده قد لامست اللوحة، فحزن على ما فعله، واستشاط غضبًا، وتجمّدت الفُرْشَاةُ في يده؛ حيث إن حركَتَهُ العفويةَ قد تسبَّبَتْ في رسمِ خطٍّ لا داعيَ له في وسط اللوحة، وبعد لحظاتٍ ضربَ بقدميه على الأرض ثائرًا كأنما أُنْشِطَ مِن عِقَال[٤]، وقال للذبابة:

- أيّتها الذبابةُ! هل أَعْجَبَكِ ما صنعتِ بلوحتي؟ أليس لديكِ احترامٌ للفن؟!

ثم تناول صابرٌ الفرشاةَ وحاولَ طمسَ أثرِ هذه البقعةِ قبل أن تَجِفَّ ألوانُ اللوحة، وما أن انتهى من هذه المهمة، حتى سمع طَنِينَ الذبابة من جديد، فوضع الفرشاة بجوار حاملة اللوحة، ثم أخذ بيده صحيفةً مطويّةً كانت في أحد أركان الغرفةِ، وانطلق يطاردُ الذبابة، وعندما رصدت عيناه الذبابةَ وهي تطيرُ في الهواء، تَوَجَّهَ نحوها ككلبِ الصيدِ الذي يلهثُ وراء فريستِهِ دون تعقّلٍ، وخطا بقدميه خطوتين إلى الأمام وكأنه مُنَوَّمٌ تنويمًا مغنطيسيًّا،

---

(٤) أي حُلَّ مِن وثاق.

فاصطدمت قدماه بطاولةٍ كانت أمامَهُ، فسقطَ على الأرض، فصارت القضيّةُ بالنسبةِ له مسألة كرامةٍ وشرفٍ، فبدأ يتعقَّبُ الذبابةَ بحرصٍ شديدٍ.

ازداد غضبُهُ وتوتُّرُهُ كثيرًا كلّما تَذَكَّرَ الاهتمام الذي أَولَاهُ للوحته وما اقترفتْه الذبابةُ في حقِّه وعدمَ اكتراثها بالجهدِ الذي بذله من أجل إنجازِ تلك اللوحة، وشَعَرَ وكأنه يُمسكُ ببندقيّة صيدٍ وليست صحيفة مطويَّة، وبدأ يجولُ في الغرفة بتوتُّرٍ مثل الصياد الذي خرج في جولة صيدٍ في غير موسم الصيد، وبعد مُضيّ بعضِ الوقت أدركَ أن الذبابةَ مستترةٌ في الجزءِ الداخليّ من الستارة، ولمعت عيناه، ووثبَ بكلّ ما أُوتِيَ من قوَّة من أجلِ التخلُّص من تلك الذبابة التي كادت أن تُفسدَ عليه لوحتَه، وبينما يَهُمُّ بضربها، إذا به يتسمَّرُ مكانه؛ فقد أَحَسَّ بألمٍ شديدٍ في خاصرتهِ؛ بسببِ وقوفه لساعاتٍ طويلةٍ، كما أن وثباته لعبتْ دورًا كبيرًا في إصابته بهذا الألم، والآن بدأ يشعرُ بوخزٍ في خاصرتِهِ، فاستشاط غضبًا لما أصابه، وقال:

- آه.. خاصرتي! ماذا عساي أن أفعلَ بكِ أيَّتُها الذبابة؟!

وفي الوقت الذي وقف يعاني من آلامه، استغلَّتِ الذبابةُ الفرصةَ وحطَّتْ بجَناحَيها بجانب المصباح، وعندما شاهد الذبابة وقد وقفت إلى جانب المصباح، استبدل المكنسةَ بالصحيفة

التي كان يمسكها، ثم اقتربَ ناحيةَ المصباح وقد عقد العزمَ على عدم الوَثْب مرةً أخرى، أخذ الكرسيَّ ونقله إلى أسفل المصباح، ولم يكن يرغب في إصدار أيّ صوتٍ حتى لا تهربَ الذبابة، فهو الآن يضحك من فرحة اقترابه من هدفه، كان كلّ شيء جاهزًا، تراجَعَ إلى الخلفِ ورفع المكنسةَ في الهواء، يا إلهي ما هذا! لقد هربت الذبابةُ ثانيةً، واصطدمت المكنسةُ بعد رفعِها إلى الأعلى بالمصباح، فانكسر.

ولما أدرك ما حدثَ وقفَ كالتمثالِ فوقَ الكرسيِّ في هذا الظلام، وقفَ وتفكَّر قليلًا، فكلُّ ما عاشه منذ قليل يستدعي الآن الضحك، لكن لا يزال لديه شغفٌ لمعرفة مكان الذبابة، وبعد مدّة لاحظ أن ضوءًا يأتي من خلف ستارة النافذة، فقد كان الوقت قد تأخَّر وطلع الصباح، ففتح الستارةَ حتى يدخلَ مزيدٌ من الضوء إلى الغرفة، فأضاءت الغرفةُ بالكامل.

وفي تلك الأثناء مَرَّ أمام عينيه مشاهدُ فتحهِ النافذةَ من أجل استنشاقِ الهواءِ، ومن ثَمَّ دخولُ الذبابة غرفتَهُ، وبعدها وقوعُ ما حدثَ معه، وأيقَنَ حينها أنه أعطى هذا الأمرَ اهتمامًا أكبر من حجمه، وفي تلك الأثناء طارت الذبابة، وحَطَّتْ على إطار النافذة.

فمـا أحدثتـه الذبابة في لوحتـه هو ما دفعه إلى أن يستشـيطَ غضبًا، لكنه الآن هدأ وسكنت أعصابه، كما أن الهواء النقيَّ الذي استنشـقه حال وقوفه أمام النافذة سـاعد في إراحته كثيرًا، وكانت الذبابـةُ تنظـرُ إلى عينيه ولسـانُ حالِهـا يقول: "فـي الوقت الذي ترغـب فيه أن أَحترمَ فَنَّـكَ، أليس غريبًا أن تُفكِّر في قتلي؟! أليس مـن الخطـإِ أن تُقدِمَ علـى محاولةِ قتلـي بدعوى أنني لـم أحترمْ فَنَّكَ؟! أليس لديك احترامٌ للمُبدِع الذي خلقني؟!".

ألقـى صابرٌ المكنسـةَ التي كانت في يـده على الأرض، وقد فرِحَ بأنه اسـتطاعَ الربطَ بين احترامِ الفنِّ وخطأِ قتلِ نفسٍ لا ذنبَ لها، في الواقـع إن التعدِّي على الذبابة لم يكن يعني التعدِّي على مجـرَّد ذبابة، بـل إنه يعني التعـدِّي على مبدع الذبابـة، وهذا يُعَدّ عـدمَ احترامٍ لخالـقِ الذبابةِ، فالآن عاد صابرٌ إلى رشـده، وزالت عنه الرغبة في القتل.

ووقـف يشـاهد الذبابة وهي تخـرجُ من النافـذة وهو يقول: "فـي الوقـت الذي تتمتَّـعُ به ذبابـةٌ بهذا القدر من القيمـةِ، أيُعقَلُ سَـفْكُ دم إنسانٍ أَرْقَى المخلوقات فَنًّا وإبداعًا؟!"، وتذكَّر كلماتٍ علَّمتْـه إياهـا جَدَّتُه عندمـا كان صغيرًا؛ إذ كانت تقـول: "إن قتلَ نفـسٍ واحدة يسـاوي قتل النـاس جميعًا"، فليس مـن الإنصاف

إزهاقُ نفسٍ بريئة -مهما صغُرت- من أجل الإنسان والإنسانية جمعاء"، وأدرك أن ما كان سيرتكبهُ كان خطأً كبيرًا، وسيطرت حالةٌ من الاندهاش على صابر بينما كانت الذبابة تطير لتخرجَ من الغرفة، وقد أشرقت الشمس، وأضاءت بنورها الأفق.



الصلاة مَنْجَاةٌ

بدَّدت أصواتُ بائعي الفطائر الصمتَ المسيطر على محطة «العمرانية» للحافلات، وفي هذه الأثناء دخل عدنان وكمال الحكاية بحقائب السفر الخاصة بهما، لا تسألوني ما الداعي لذكرهما الآن؛ لأنهما بطلا هذه الحكاية، سيسافران سويًّا إلى إسطنبول.

ترك عدنان الحقيبة التي كان يمسكها في يده، ونظر إلى تَذْكِرة السفر، ثم الْتفتَ إلى صديقه كمال، وقال له:

- نعم، الحافلة التي في الأمام هي التي سنركبها، هيا يا كمال، وصل الصديقان إلى جانب الحافلة، ثم قدَّما تذكِرتَيهِما إلى مساعد السائق، ومن ثَمَّ وضعا حقيبتيهما في المكان المخصَّصِ لها في الحافلة، ومال عدنان إلى مساعد السائق، ونبَّهَه قائلًا:

- انتبه لو سمحت! توجد أشياء مهمة في داخل هذه الحقيبة.

وبالرغـم من ذلك، لم يُلْقِ مسـاعدُ السـائق بـالًا لتحذيرات عدنان، وألقى حقيبَتَهُ في خزانةِ الحافلةِ وكأنها كيسٌ من القطن.

شَـعَرَ عدنـان بغضـبٍ شـديد، وقـال وهـو يستشـيط غضبًا: "حسبي الله ونعم الوكيل!"، وكان يقصد بهذا: "قد فعلتَ خِلافَ ما قلتُ لك يا أخي؟!... أتفعل بي هذا في بداية الرحلة؟!... "

تحركت الحافلة متأخرةً عن ميعادها المحدد بخمسَ عشـرةَ دقيقـة؛ الأمـرُ الذي أغضبَ عدنـانُ أكثر، ودَفَعَـه للتفوُّه بكلمات يعبـر بهـا عمـا بداخلـه مِـن خَنَـقٍ، غيـر أنـه سـيطرَ علـى غضبه فـي اللحظات الأخيرة، وحاول عدمَ إبدائـه؛ لأنه مُعْتادٌ على مثل هـذه الحـالات، بدأت الرحلـةُ، وأخذ الصديقـان يتحدَّثان طوالَ الطريق عن ذكريات الطفولة.

وبعـد فترةٍ مـن الوقت وصلت الحافلةُ إلى مقرّ الاسـتراحة، كان الصديقان قد عانيا خلالَ الرحلةِ من آلامٍ في الرُّكَب؛ بسـبب ضيـقِ المسـافةِ بين المقاعـدِ، وما أن نزلا من الحافلـة حتى وَقَفَا علـى أقدامِهِمَـا ورُكَبُهمـا تَرْتَعِـد كالمُهْر حديث الـولادة يحاول الوقوفَ لأوّلِ مرّةٍ.

بادر كُلٌّ مِن عدنانَ وكمالٍ إلى البحث عن مسجدٍ؛ لأداء صلاة الظهـر، فصلَّيا مباشـرةً لأنهما كانا مُتوضِّئَيـنِ، ولكن عند عودتهما

إلـى الحافلـة فُوجِئَـا بعـدم وجودها، ظنّـا في أنهما قـد بحثا عنها في المكان الخاطئ، فأخذا يبحثان في مقرِّ الاستراحة ذهابًا وإيابًا.

وعندمـا أدركا أن الحافلـةَ قـد غـادرتِ المـكان، نَظَـرَا إلى سـاعتيهما للتأكُّد من أنهما لم يتأخَّرا عـن الوقت المحدّد، فعلِما أنه كان لديهما نحوُ عشرِ دقائقَ حتى نهايةِ وقتِ الاستراحة.

استغربا من تصرُّف مسـاعد السـائق؛ حيث إنه قد أَكَّدَ لهما عـدمَ مغادرةِ الحافلة بدونهمـا حينما أَخْبَرَاه بقولهما: "سـنُصلِّي خـلال عشـر دقائق، ثم نعود فورًا إلـى الحافلة"، فما كان منه إلا أن غادرَ المكانَ قبل انتهاءِ وقتِ الاستراحة.

كان عدنـانُ يملك نفسـه من الغضبِ بصعوبـةٍ بالغةٍ، ووقف على قارعة الطريق تعتليهِ حالةٌ من الاندهاش.

في الوقت الذي كان عدنانُ يقفُ عاجزًا عن التصرُّف لا حول له ولا قوة، نجدُ أن صديقَهُ كمالًا قد أخذ يتمالكُ نفسه ويستجمـعُ قـواه، وبدأَ يفكِّر في إيجادِ حلولٍ عمليّةٍ من أجل اللحاق بالرَّكْب؛ كـي يَصِـلَ إلـى عمله في اليـوم التالي، وبينما يَتَّسِـمُ كمـال بحالةٍ من الهدوءِ والثباتِ الانفعاليّ، نجدُ عدنانَ يُعرب عن غضبه الشديد بالنظر يَمْنَةً ويَسْـرَةً؛ للبحث عن مسـؤولٍ بشـركة السـفر لسـؤاله عن أسبابِ ما حدثَ، ثمّ يلتفت عدنان إلى كمال ويقول له:

- يا له من سـوءِ حظٍّ يا أخي! هل يمكنُ لإنسانٍ أن تنكسِرُ أسنانُه وهو يتناولُ المُهَلَّبِيّة[٥]؟!

ثـم نظـر إلى كمـال فوجـده ينظر إليه مُبتسـمًا، فلـم يحتمل عدنان ذلك فسأله قائلًا:

- خيـرًا! لِـمَ أنت هادئٌ إلى هـذا الحدّ؟! أم أنني قـد فاتَتْنِي الحافلةُ وحدي؟!

نظر كمال إلى صديقِ طفولتِهِ، وقال وهو مبتسمٌ مبتهجٌ:

- هوِّنْ عليك يا صديقي، إن الغضبَ لن يحلَّ المشكلة؟

أطـال الصديقـانِ الكلامَ إلـى أن وصلتْ حافلـةٌ أُخرى مقرَّ الاستراحة، فركباها وشرحا ما حدث لهما إلى السائق.

لـم تَكْـفِ تلك المحادثات كي يشـعرَ عدنان بتمـام الراحة، بل إن شـعورَ صديقِهِ كمال بالراحةِ والطمأنينةِ زادَهُ سُـخطًا على مـا حـدث لـه، لكنّه يشـعرُ ببعـضِ الراحـةِ علـى أمـلِ أن يلحقا بحافلتهمـا فـي مقرّ الاسـتراحة التالي الذي وَصَلَا إليـه في نهاية الرحلـة، ولرغبتـه في عدمِ تكرارِ مـا حدثَ له ولصديقِـهِ، التفتَ عدنان وهو ينزل من الحافلة هذه المرة، وقال لمساعد السائق:

---

(٥) المهلبية: نوع من أنواع الحلوى الطرية جدًا مصنوعة من الحليب والنشا والسكر.

- باللهِ عليك يا صديقي لا تنسونا أنتم أيضًا في هذا المكان، وفـي هـذه الأثنـاء رأى عدنـان الحافلـة التـي غـادَرَتْ وتركَتْهُم في المحطَّة السـابقة، فترك الكلامَ مـع مسـاعدِ السـائقِ، وسـارعَ بالتوجُّه إلى مكان الحافلة.

لم يفهم كمالٌ سـببَ إسـراعِ عدنان في خطواته، فنظر بمزيد من التركيزِ ليشاهد هو الآخرُ الحافلةَ التي فاتَتْهُم ويشرعَ بالجريِ وراء صديقـه، وصـل عدنـان إلى الحافلـة، وما أن هَـمَّ بالصياح واللوم، إذ بمساعد السائق يبادره بقوله:

- أهلًا يا صديقي العزيز!

- ...

فجالـت بذهـن عدنان أفـكارٌ ناقمـةٌ على مسـاعدِ السـائقِ، مفادهـا: "كيـف لهذا الرجل أن يتصرَّف وكأنَّ شـيئًا لم يحدث؟! فـي محاولةٍ منه لجعلنا ننسـى ما حدثَ لنـا؟!"، وبينما تجولُ في ذهنه هذه الأفكار، تابـعَ مساعدُ السائقِ كلامَه بالابتهاج ذاته قائلًا:

- إن اللهَ يُحِبُّكَ أنتَ وصديقَكَ هذا يا صاحبي.

لـم يفهـمْ عدنـانُ مـا يَقْصِـدُه مسـاعد السـائق، الذي أشـار إلى زجاج الحافلة، وتابـع بقوله:

- ألا ترى ماذا حدثَ لزجاجِ الحافلة؟

نظر عدنان وكمال إلى بعضهما البعض، وطرحا سؤالًا في اللحظة ذاتِها قالا فيه:

- ما علاقة ذلك بأنكم نسيتمونا وتركتمونا في محطَّة الاستراحة؟!

- ليس الأمر كذلك يا صديقي! بعدما ذَهَبْتُما لأداء الصلاة جاء رجلٌ ثَمِلٌ، ودخل في مشاجرةٍ مع سائق الحافلة.

- ماذا تقصد؟

- ثم بعد ذلك...

وصمت مساعد السائق لحظةً، وبَلَعَ رِيقَه، بينما يواصل عدنان وكمال التحديق في وجهه؛ لعدم فهمهما ما حدث بالضبط، وشَعَرَ مساعد السائق بالسعادة لمتابعتهما إيَّاه باهتمام بالغٍ، ثم استطرد في كلامه بسَرْدِ ما وقع لهم بقوله:

- كانت لدى ذلك الثَّمِل رغبة في العِراكِ، وهو ما دفعنا للإسراع بالانطلاق من أجلِ التخلُّص منه، لكن ذلك لم يُثْنِهِ عن تَعقُّبِنا بسيارته.

نظر عدنان إلى كمال وقال للرجل:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- استطاع اجتياز حافلتنا بعد مُدَّةٍ، ومِن ثَمَّ اعترض طريقَنا، وكاد أن يتسبب في وقوع حادثٍ مروّعٍ.

- ...

- ثم أَخْرج مسدّسَه، وأطلق طلقتين صَوبَ سائق حافلتنا.

تعجَّبَ الصديقانِ مما يسمعانِهِ، وسألا مساعدَ السائقِ بشَغَفٍ:

- حقًّا؟ حمدًا لله على سلامتكم... هل سقط قتيلٌ أو جريحٌ من جَرَّاء هذا الهجوم؟

- ما تلا ذلك يتعلق بكما.

فرد عدنان مسرعًا:

- كيف ذلك؟!

- لأن الطلقتين اللتينِ أَطلَقَهما الرجلُ الثَّمِلُ لم تُصِبْ السائق، وإنما أصابتا المقعدين اللذين كنتما تجلسان عليهما، وهذا يعني أنكما إنْ كنتما في الحافلة وقت الهجوم فلَرُبَّما لم تتمكنا من النجاة.

- ...

سيطرت حالة من الدهشة والذهول على الصديقين لِمَا سمعا، فالرصاصتان ثَقَبَتَا المقعدين اللذين كانا يجلسان عليهما، ونفذت إلى الجهة الخلفية، أفاق عدنان من هذه الصدمة بعد

لحظـاتٍ، والْتَفَـتَ إلـى صديقه كمال الـذي جادَلَه فـي المحطة السـابقة وذكَّره بالآية القرآنية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢/٢١٦].

ثم قال له:

- لقد فهمتُ خطئي جيّدًا يا أخي.

سـمع الصديقان إعلانًا صوتيًا داخلَ مقرِّ الاستراحة، يقول: "إن مؤسّسـتنا تُكرم ضيوفها بالشاي مجّانًا"، فتقدما نحو المقهى وهما يَشْـبِكان ذراعيهما ببعضهما البعض، وتناولا ضيافة الشـاي بسعادةٍ بعد تلقيهم درسًا نافعًا من دروس الحياة.



للكون مُدَبِّر

كان الجو حارًّا، وقد أوصى خبراءُ الأرصاد الجوِّيَّةِ بعدم الخروج إلى الشارع إلا في حالات الضرورة القصوى، وكان الناس يشعرون بدرجة الحرارة بمعدَّلٍ أعلى بسببِ الازدحام الشديد، وكان هناك أناسٌ وسياراتٌ وبواخرُ وطيورُ النورسِ التي تحتمي بالظلِّ... كان فؤادٌ كلما نظر إلى مكانٍ وجد الناس يختبئون فيه من حرارة الصيف، وشعر بأنّ شيئًا الْتصقَ بقدمه بينما كان يعبُر الشارع إلى الجهة المقابلة، فنظر إلى أسفل حذائِهِ فوجدَ الزفتَ الأسودَ قد التصقَ به، فقد تسبّبتِ الحرارةُ المرتفعة في انصهارِ الإسفلتِ الذي التصقَ بحذائه.

أحكم فؤادٌ قبضَتَه على الحاسوب الذي كان يحملُه بيده؛ خشيةَ أن يسقطَ من بين أصابعه التي سال منها العرق، وكان قد عانى كثيرًا لإيجاد مكانٍ من أجل إيقافِ سيارتِهِ، وحرارة الشمس تزيدُ الأمورَ صعوبةً.

دخل شركةَ صديقه كنعان للحواسيب بعد رحلةٍ شاقَّةٍ، وشَعَرَ بارتياحٍ عندما وضـع حاسـوبَه على المنضدة، عَرَفَ الشابَّ الذي كان يجلس على مقعد الاستقبال فؤادًا، وقال له:

- مرحبًا بك يا صديقي الطبيب.

- أهلًا بك يا صاحبي.

أشـار كنعان إلى الحاسـوب الذي وضعه الدكتور فؤاد على المنضدة، وسأله بدعابة:

- خيـرًا؟ ممّـا يعاني مريضُنا؟ هل قلبُـه ينبضُ؟ وما هو قياسُ ضغطِه؟

ابتسـمَ فؤادٌ لمداعبـة صديقه، ثم التفتَ كنعانُ إلى مسـاعده قائلًا:

- اطلبْ مشروبًا باردًا للدكتور فؤاد.

ثـم فـكَّ الحاسـوبَ بالمِفَـكِّ سـريعًا، وقـال بينما هـو يَفُكُّ الحاسـوب: "مـا المشـكلة يـا صديقـي؟"، ثـم نظـر إلـى داخل الحاسوب، فقال الدكتور فؤاد:

- انقطـع التيـار الكهربائـي ثـم عـاد، ثـم حاولـت تشـغيل الحاسوب فلم يعمل.

نادى كنعان على مساعده قائلًا:

- أَعْطِني قابسَ الكهرباء يا بُنَيّ.

نهض الدكتور فؤاد من مكانه، وقال:

- هل ستستغرق صيانةُ الحاسوب وقتًا طويلًا؟ إن كان الأمر كذلك فإنه يمكنني أن أذهبَ الآن، ثم آتي لاحقًا لاستلامه، فإن صيانة الحاسوب تتطلّب عملًا طويلًا، ومكوناته معقّدة للغاية، ويمكن أن تُكْتَشف به بعض الأعطال.

ردَّ كنعانُ دون أن يرفعَ رأسه:

- عندما تنظرُ للمسألة من الخارج تجدُها صعبةً معقّدةً، أليس كذلك؟ يوجد بداخل الحاسوب مجموعةٌ من الأسلاك السَّمِيكة وأخرى قد تكون أرفعَ من بعض الشُّعَيرات، ويمرُّ من خلال تلك الأسلاك المعلومات المقروءَةُ والمَشَاهِدُ المصوَّرةُ والصوتيات، وكلّما أفكِّرُ في هذه الأمور تزداد حيرتي.

مسح كنعان العرقَ من على جَبِينِهِ بعد أن صمت قليلًا، ثم تابع:

- يا سيدي الطبيب، شاهدت فيلمًا وثائقيًا يحكي أن الكبد يقوم بنحو خمسةِ آلافِ وظيفةٍ، فلمّا سمعتُ هذه المعلومةَ اندهشتُ كثيرًا وقد كنتُ أتعجَّبُ من نظامِ عملِ الحاسوب المُعَقَّدِ والمُبْهِر، ليست وظيفةً واحدةً أو خمس، بل خمسة

آلافِ وظيفة! ما رأيك؟ ألم يبدعِ المولى ﷻ في خلق مخلوقاته في أحسن تقويم؟

وبدأ كنعان وهو يشرح ما يقولُه يحرِّكُ المِفَكَّ الذي يُمسكه بيده كالعصا التي يمسكها الموسيقار وهو يقود فرقته الموسيقية، وكان بين الحين والآخر يُدخل رأسَه داخلَ الحاسوب لمتابعة عملية الصيانة، أصبح وكأنَّه لا يشعرُ بالحرِّ أو يرى الحاسوب الذي أمامه، ثم قال بعد مدّة:

- أَعلَمُ أنَّ الحديثَ في مجال عملك يعتبر عيبًا، لكنني أتعجَّب كثيرًا عندما علمت هذه المعلومة، فما رأيك؟

ثم توجَّه بالنظر إلى فؤاد، فشاهده وهو ينهض وقد ترك مشروبَه البارد فوق المنضدة، وبدأ ينظر بنظرات متأمِّلةٍ، لم يفهم كنعانُ ما الذي حدث، فبادره بالسؤال:

- ما الذي حدثَ لك يا سيدي الطبيب؟ أتمنى ألا أكون قد أزعجتُك.

- لو سمحتَ لا تفهمني خطأً، فإن ذهني مُنشغِلٌ، سأذهب بعد ساعةٍ لفحصِ مريضٍ أعالجُه، فذلك الذي كان يشغل تفكيري.

- عافاه الله، مِن أيِّ شيءٍ يشتكي ذلك المريض؟

- قُمنا بعمليّةِ خياطةٍ لساقه التي بُتِرَتْ في حادث عمل، وهو الآن يخضعُ للمتابعةِ الطبيّةِ، وينبغي لي أن أَذهب لمتابعة حالته.

ثم استأذن الدكتور فؤاد للمغادرة، فودَّعه كنعان، وقال له:

- لا تقلقْ بشأن حاسوبك، تستطيعُ المجيءَ في المساء لاستلامه.

ابتعد الدكتور فؤاد عن الشركة وكأنّه يهربُ من حرِّ الصيف مع محاولته الهروب من الأمور التي تشغَلُ ذهنَه؛ حيث إنَّ هذا النوع من الأفكار كان يُرهقه كثيرًا، وكان ممّن يُؤمِنُ بأن كلَّ شيءٍ في هذا العالم نشأ صُدفةً دون وجود إلهٍ أو خالقٍ! ركب سيّارته، وسار بها إلى المستشفى، ودخل غرفة المريض برفقة الطبيب الذي أجرى له العمليّة، فوجداه يقوم ببعض التمارين الرياضية، فعندما رآهما المريض، قال والفرحةُ تعتلي وجهه:

- سيدي الطبيب، أشعر قليلًا بساقي.

بادر الطبيبُ الذي سمع كلام مريضه إلى فحص ساقه ببعض الآلات الطبّيَّةِ التي كانت في يده، ووجد أن المريض كان مُحِقًّا فيما يقول؛ إذ إن بعض الأماكن في ساقه بدأت تعمل بطريقة طبيعية، كان الدكتور فؤاد منشغلًا بما قاله كنعان من جِهةٍ، ومن جهةٍ أخرى بكلام زميله الطبيب الذي كان يقول:

- حاولْنـا ربطَ السـاق المقطوعةِ بالجسـد كما كانت، ولكن وجدنـا صعوبةً بالغةً فـي إيصالِ الأعصابِ الأساسـية، وكان من المثير للغاية أن تسـتطيـعَ الأعصابُ الالتئامَ والعودةَ إلى طبيعتها الأولى، هذه معجزة من عند الله، ألمْ يخلقِ الله الإنسانَ في أحسن تقويمٍ؟

سمـع فؤادٌ هذه العبارة للمرّة الثانية في اليوم نفسه، "كم هو مبـدع! أليـس كذلك؟" كان يحاول الهـروب من التفكيرِ في تلك الأفكار، لكنّها سـرعانَ ما سـيطرت على ذهنه مجـدّدًا، وقال في نفسـه: "كيـف يمكن أن يحدثَ ذلك والسـاق يمـرّ عبرها آلافُ النهايات العصبية؟!".

كان فـؤادٌ قـد عالـج العديدَ من الحالات المرضيّة المشـابهة لهـذا المريـض، ولكنّ ذلـك اليـوم كان مختلفًا تمامًا؛ فقد شَـعَرَ في ذلك اليوم وكأنَّ أشياءَ تتحرّك بداخله وفي عقله، وعلى الرغم مـن ذلك كان من الصعب عليـه التصديقُ بأن هناك إلهًا خلق كلّ هـذه الأشـياء، ولقد أجابـه المريض على الأسـئلةِ التـي أرهقت عقلَه؛ إذ قال:

- إن الله ﷻ قادرٌ على كلّ شيءٍ!

- ...

تعاظمت هذه الكلمات في ذهنه وكأنها تمدّدت خارج عقله، وصعدت إلى عنان السماء، عاد فؤادٌ إلى رشده كأنّه استيقظ من حلمٍ رآه في منامه، واستمرّت العاصفةُ التي اجتاحت عقله منذ أن خرج من المستشفى حتى وصوله إلى شركة الحواسيب، وعندما وصل إلى هناك وجد أن حاسوبَه قد تمّت صيانته.

وبينما هو خارجٌ من الشركة ومعه حاسوبه، نظر إلى عينَي صديقِهِ كنعان، وكانت عيناه تملأُهُما الدموع؛ حيث إنه قد عثر على إجابة السؤال الذي كان يُحَيِّره منذ سنوات.

ففي الوقت الذي أثبتَ الحاسوبُ أنّ له صانعًا أَتْقَنَ صُنعَه، فكيف لهذه المخلوقات أن تكون من غيرِ صانعٍ قد أَبْدَعَها؟

في الواقع، إن هذه المخلوقات تَتَمتّع بنظامٍ دقيقٍ يُظْهِر القدرةَ المُطلَقةَ لِخالِقِها ﷻ، وهو ما يعني أن خالقَ آلاف الخلايا العصبيّة هو من خلق عينَ البعوضة وهو نفسُهُ خالقُ الشمس.

وحينما خرج الدكتور فؤاد من شركة الحواسيب كانت الشمسُ قد بدأت تغيب لتتركَ مكانها لِلَّيلِ يداعب الأشجار بهوائِهِ اللَّطِيفِ، في الوقت الذي تركتْ فيه الأسئلةُ التي أرهقتْ ذهنَهُ مكانَها للطُّمَأْنينةِ والراحةِ.

بزوغ فجرِ الحقيقة

لـم يكـن البـاب والمكتبـة وواجهـة العـرض التـي تتـلألأ فـي وضـح النهار وسـط المنـزل ليظهروا لـولا ضـوءُ المصباح القادم من خارج المنزل، فقد كانت الغرفةُ مظلمةً إلى الحدّ الذي إذا استيقظ أيّ شخص في منتصف الليل فمن الممكن أن يصطدمَ بأحد هذه الأشياء إن لمْ يمشِ بحذرٍ.

لـم ينعكـس ضوءُ القمر المتلألئ في هذه الليلة على سـقفِ الغرفـة؛ لأننـا في موسـم الصيف، ولـم يكن أمجـدُ يحبِّذ الظلام مطلقًـا، وكان أحيانًـا يضـع الغطاء على رأسـه ويظـلّ تحته حتى يخلدَ إلى النوم.

حدث ذلك أيضًا في تلك الليلة، الجميـع ناموا، سوى أمجد فإنـه لـم يسـتطـعِ النومَ رغـمَ أنه أغلـقَ عينيه بإحكامٍ تـامّ، وصار يتقلّـب يَمْنَـةً ويَسْـرَةً تحت الغطـاء لمدة طويلة، ثم أخرج رأسـه من تحت الغطاء بعد نفاذ الأوكسجين في داخل الغطاء.

مـرت سـاعةٌ منذ أن دخلَ إلى السـرير، والنـومُ يجافي عينيه بالرغم من أنه كان يشعر بإرهاقٍ كبيرٍ في جسده، ثم قال في نفسه:

- يـا أمـاه! لقـد غلبني النـومُ وأنا أجلـسُ أمام التلفـاز، كان شـعورًا رائعًـا! لمـاذا أيقظتِنِـي؟ أيقظَتْنـي؛ لأنه لا يمكننـي النوم بملابـس الخـروج حتـى لا تصير غيـر مُهَنْدَمَة، كما أنهـا لا تريدُ أن أنامَ على المقعد أمامَ شاشـة التلفاز، والآن أحاولُ أن أنامَ بعد أن جَفَاني النومُ دون رجعة.

بـدأ ذهـنُ أمجد يشـردُ مع الخيالات التي شـكَّلَتْها السـتارةُ المتحركـةُ داخـلَ الغرفـة المظلمـة، اسـتمرّ هـذا المشـهد لمدّةٍ، ثم اختفى.

وكان أمجـدُ كلَّمـا حاولَ النـومَ من أجل الهروبِ من نفسـه والأسئلةِ التي تجولُ بعقله يُجَافِيه النومُ أكثر، ويظلُّ ساهرًا طوال الليل.

ظـلَّ أمجـدُ يَتقلَّب يمينًـا ويسـارًا وعلى ظهره وعلـى بطنه؛ فـي محاولـةٍ منه لإيجاد وَضْعِية تُسـاعِده على النـوم، ولكن دون جدوى، بقيَ أن يُجَرِّب النومَ على رأسه! ولكن هيهات...! وكأن أسرتَهُ جعلته يشربُ كلّ القهوةِ الموجودةِ في المنزل.

كلّ مـن فـي المنـزل قـد نامـوا؛ حتـى الأسـماك الموجودة فـي حوض السـمك، والقطـة، وطائـر الوقـواق[٦] المُعَلَّق داخل الساعة، لكن أمجد لم يَنَمْ إلى الآن، وقد تسبّبتِ الأسئلةُ التي ازدحم بهـا ذهنه فـي مُجَافاةِ النومِ عـن عَينَيهِ، فما أنْ حَـلَّ الليلُ إلا وقد سيطرتْ تلك الأفكارُ المُقْلِقة على ذهنه تَمْنَعه من النوم!

أدرك أمجـدُ أنَّ جميـعَ أفـرادِ أسـرته قد خلدوا إلـى النوم؛ بسببِ الهدوءِ والصمتِ اللَّذينِ خَيَّمَا على المنزل، وشعر بالرغبة فـي أن ينهـضَ من سـريره ويفتحَ النافذة؛ كي ينظـر إلى الخارج، ولكنّـه لـم يسـتطـعِ الخـروجَ من سـريره؛ لأنـه يخشـى الظلامَ، ولـم يكن ثَمَّة صوتٌ داخلَ الغرفةِ سـوى صوتِ عقاربِ السـاعة، كان الخوفُ يسيطرُ عليه مـع حلول الليل دون سببٍ! وكان يفكِّر دائمًـا في الأسـئلة التي تدورُ في رأسِـهِ ولكـن دون جدوى؛ لأنه ليس هناك أحد في محيطه يجيبه على تلك الأسـئلة، فكلَّما سـأل أحـد أصدقائـه عـن هذه الأسـئلة، كان يقـول له: "يـا أخي اترك

(٦) طائر الوقواق: نوع من الطيور الغريبة السلوك والصفات حيث يشتهر بكسله وأنانيته فهـو لا يهتـم برعاية صغـاره ولكنه بمجرد أن تخرج البيضة من شـريكته الأنثى يلقيانها في عـش طائـر آخر إلى أن يخرج الطائر الجديد منها ويتولى رعايته أبوان جديدان ويبدأ الفرخُ الجديد مباشرة بإلقاءِ من معه في العش من الطيور الصغار إلى خارج العش فيرميهم للهلاك والموت حتى ينفرد بكل الطعام الذي يأتي به الأبوان.

التفكير في هذه الأشياء، أنت ما زلت شابًّا يافعًا... أَرْجِئِ التفكيرَ في هذه الأشياء إلى أن تَكْبُر، واغتنم في شبابك ما لن تستطيع اغتنامه في كِبَرِكَ، عِشْ شبابك، وعندما تَكْبُر وتتوبُ فإن كلَّ شيءٍ يعود إلى طبيعته ثانية".

كان وقتَها يؤمنُ أمجدُ بصدق هذه الكلمات، لكن أفكارَه ومخاوفَه كانتا تُسَاوِرانِهِ في الليل: "ماذا لو انتهت حياتي في هذه السنِّ الصغيرة ولم تَسْنَحْ لي فرصةٌ للتوبة؟ ماذا لو انتقلتُ من ظلمة الليل هذه إلى ظلمةٍ أكثرَ حَلَكًا؟... ماذا لو لم يَطْلُعْ عَلَيَّ الصبحُ ثانيةً؟ ماذا لو...؟ ماذا لو...؟ لا لا! عَلَيَّ أن أنام".

وفي هذه الأثناء، تذكَّرَ المذياعَ الذي وضعه إلى جوار سريره، اعتقدَ أنَّ بإمكانه الهروبَ من هذه الأفكار بالاستماع لصوت الإذاعة، ووضع السماعات في أذنيه، وبدأ يتنقَّل بين المحطّات الإذاعية، ولكنه أخرجَ السماعةَ من أذنيه؛ إذ إنه لم يجدْ شيئًا يعجبُه في الإذاعة، أراد أن يشرب الحليبَ كما يحدثُ في الأفلام، ثمّ يحاولُ أن ينامَ ثانيةً، لكنّه لمْ يجد الشجاعة لفعل ذلك لخوفه من الظلام.

بادر إلى إحداث نوع من الضوضاء، بأن يُصدرَ صوتَ الكُحَّةِ؛ من أجلِ إيقاظِ أحدِ أفراد أسرته كما كان يفعل عندما كان

طفلًا صغيرًا، فباستيقاظ أحدِهم من نومه، يتمكّن من الذهاب إلى المطبخ دون قلقٍ أو خوف.

رفع رأسه من على الوسادة، واتَّخذَ وضعيّة الجلوس على السرير، بدأ يَكُحُّ بصوتٍ عالٍ جدًّا، لكن لم ينتبه لذلك أيّ أحدٍ؛ مما أصابه بالإحباط، ودفعه إلى تمديد جسده مرّة ثانية على الفراش.

وفي لحظةٍ، تَخيَّلَ أنه يصيحُ بأعلى صوته بعد أن يقفزَ من على فراشه ليصلَ إلى المصباح، فقال في نفسه: "إن هذا عمل سخيف"، ثم تراجَعَ عن تلك الفكرة، كان يرغب في التخلُّص من تلك الحال القاسية، فَكَّرَ في التخلِّي عن جميع الأموالِ التي جمعها على مدارِ عامٍ كاملٍ؛ مُقابِلَ أن يسمعَ صوت إنسانٍ فيستريح.

أَيقَنَ بعد مدّةٍ أن الوقتَ قد تأخَّرَ كثيرًا، لكنّه سمع من خارج المنزل صوتَ الأذان اللطيف الذي أخمدَ ألسنةَ اللهبِ المشتعلة بداخله، ثم قال في نفسه: "لا تكنْ طفلًا، انهَضْ وواجِهْ جميعَ الحقائق التي حاولتَ الهروبَ منها وتَجاهلتَها".

تذكّرَ العبارة المكتوبةَ على اللوحةِ المعلّقةِ على جدار الغرفة التي تقول: "إن من يُغلق عينيه يصنعُ ليلًا في خياله"، فأَدْرَكَ

أنه لن يستطيعَ الهروبَ من الحقائق، وأَيقَنَ أنه كَمْ كان مُخطِئًا؛ بسبب تجاهُلِهِ رؤيةَ الحقيقة.

فتحَ عينيه في ظلمة الليل الحالك، وقال في نفسه: "لا يجب أن تَمُرَّ ليلتي هذه في ظلِّ المزيد من الألم"، ثم نهضَ من فراشه، وتوجَّهَ إلى الحمام كي يتوضَّأ، أخذتْ برودةُ المياه المتدفقة من الصنبور تُنَظِّفُ جسَدَه وأفكارَه التي أَرَّقَتْهُ حتى الصباح، ثم أَدَّى صلاةَ الفجر في خشوعٍ تامٍّ، وبعدها انتقل إلى فراشه مجدَّدًا، أصبح قلبُه أكثرَ طُمأنينةً بعدَ أن كادَ يخرجُ من صدره؛ بسبب هواجسِهِ ومخاوفِهِ.

وبينما كانت الطيورُ تغرِّدُ في الصباح لإعلانِ سطوعِ الشمس، كان أمجدُ يَغِطُّ في نومه سعيدًا، ليستيقظ بعد ذلك على الطمأنينةِ الحقيقية.



المِنحةُ في المِحْنةِ

كانت أضواء السيّارات ليلًا تتقدَّم على طول الطريق كالحِمَمِ البُركانيـة الحمـراء الكثيفـة؛ فقـد كانت السـيارات تتحـرك بِبُطْءٍ شديدٍ؛ بسبب الكثافةِ المروريّةِ.

اصطفَّت السـيّارات في صفوف متوازيةٍ كالمنازل المتحرّكة، وتـدور بداخلها محادثاتٌ جمّةٌ بين الركاب، وكان من بين الذين يتحدّثون داخلَ سـياراتهم الصديقان حسن وحسين، فهما يردِّدانِ العبارات الخاصة بهما:

- انتظِرْ أنتَ هنا، سآتي حالًا.

- أحسـنتَ فيمـا قلـتَ، كنتُ أُفكِّـرُ: أين يمكنُنـي أن أُوقِفَ سيارَتي وسطَ هذا الزحام؟ سأنتظرك هنا...

لم ينتظر حسـنٌ أن يُكمِلَ حسـينٌ كلماتِهِ، فنزلَ من السـيّارة، واختفـى داخـلَ شـارعٍ جانبيّ، وأمّا حسـينٌ فبدأ يشـاهد قطرات المطـر التـي تَنْضَحها السـماءُ بكميّـاتٍ قليلةٍ وهـو يجلس داخل السـيارة، وسـرعان ما شَـعَرَ بالملل بعد مدّة، وبينمـا يَمِيل ليفتح

المذياع، رصدتْ عيناه فتًى مُدمِنًا في مقدّمة الطريق، وبادَرَ هذا الفتى ذو الهيئةِ الرثّةِ إلى تقريبِ قطعةِ القماشِ التي تملأها مادّة التنَرِ[٧] إلى أنفه، ثم استنشقها عدة مرات.

نظر حسين إلى ساعته، وقال: "إلى أين ذهب حسن؟"، بالرغم من مرور خمس دقائق على مغادرة صديقه حسن، إلا أن هذا الوقت قد مَرَّ عليه كأنّه ساعات طويلة، كان يريد ألَّا يُظْهِرَ خوفه من هذا الفتى المدمن، وازدادَ توتُّره عندما عَمَد هذا الفتى إلى الاقتراب من سيارته.

أَمْعَنَ الفتى المُدمِنُ النظرَ بعينيه إلى سيارةِ حسين وكأنّ أحدًا لم يَبْقَ في الشارع سواه، استنشقَ الفتى نَفَسًا عميقًا من قطعة القماش التي كانت بحوزته، ثم توجَّه صوبَ السيارة، ترنَّح عِدّةَ مرّاتٍ وهو يسير في طريقه، لكنه نجح في النهاية من الوصول إلى السيارة، فهو الآنَ يقفُ أمامَ السيارة، وينظر إلى عينَي حسين، وكأنه يحاول أن يقتحمهما.

أَشارَ حسينٌ إلى الفتى مُلَوِّحًا بيديه كي يبتعدَ عن سيارته، لكنّه لم يجدِ استجابةً من الفتى، فأَدَارَ محرّكَ السيارة،

(٧) التَّنَر: هو مادة بترولية تتكون من خليط من بنزين السيارات وكيروسين الطائرات وهو يُستخدم كوقود وتُستخدم في أنواع الصباغات وهو سريع الإشتعال ويتسبب بالإدمان مما ينتج عنه حالة عصبية سيئة عند من يدمن عليه، فتبدو عليه آثار السكران.

وما أن سَـمِع الفتى صوتَ المحرك، حتى انتقل بسـرعة إلى باب السـيارة، فقـال حسـينٌ في نفسـه: "لقـد وقعتُ الآن فـي ورطة، يـا تـرى لو أعطيته بعـض المال، هل سـيتركني دون أن يُلحق بي أذًى؟"، فحـاول أن يسـألَ الفتـى مـاذا يريد، لكـنَّ الفتى لم يكن يتمتَّع بحالةٍ عقليةٍ تسـمحُ له بفهم ماذا يريد حسـينٌ أن يقول له؛ بسبب مادة التِّنَرِ التي أَدْمَنَ على استنشاقها.

وما أن بادر الفتى إلى فتح باب السيارة، حتى تصرَّف حسينٌ بطريقـةٍ سـريعةٍ جدًّا وأغلق أبوابَ السـيارةِ الأربعـةِ، فالأمر الآن خرج عن السـيطرة، وتحوَّل إلى صراعٍ بينهما، فكَّرَ حسينٌ في أن يهـربَ من هذا المكان، لكنّه أعرضَ عن هذه الفكرة عندما تذكَّرَ صديقه.

وعندمـا أخـذ الفتى المدمنُ في الطرق على زجاج السـيارة، لـم يسـتطع حسـينٌ الوقـوفَ أكثـر مـن ذلـك، وقال في نفسـه: "مـا هذه المشـكلة التي طرقـتْ بابـي الآن؟"، وحـاول التحرُّكَ بالسـيارة، ولكن دون جـدوى، انتظر أحدًا يسـاعده، ولكن أحدًا لم يُقدِمْ على المساعدة وكأنّ الناس لا يرونهما، فَطِنَ حسينٌ بعد مدّةٍ أن كَبَّاحة اليد (الفرامل) كانت مرفوعةً، أنزلها حسينٌ بسرعة، ثم تحرَّكَ بالسيارة في غضون ثوانٍ معدودة، واختفى عن الأنظار،

تجـوَّلَ حسـينٌ بسـيارته قليلًا فـي الشـوارع المحيطـة بالمنطقة، ثـم فَكَّرَ فـي أن يتقابلَ مـع حسـنٍ في المكان الـذي تواعدا على الالتقاء فيه، وقد لاحظَ حسـينٌ مجموعةً من الناس قد احتشـدتْ فـي المـكان الذي التقى فيـه الفتى المدمنَ وهو يطوف بسـيارته، وأراد الوقوفَ للاطِّلاعِ على ما يحدث، لكنّه رأى شخصًا يجري نحو سيارته، فاعتقد أن الفتى المدمنَ قد عاد يُهاجمه مرّةً أخرى، فأَصابَته حالةٌ من القلق، وشـرع في التحرّك بالسـيارة، وما أن هَمَّ بالتحرّك بالسيارة، حتى أَدْرَكَ أن المُتَّجه نحوه هو صديقه حسنٌ، فأوقفَ السـيارةَ، ونادى على صديقه، فعانَقَه حسـنٌ بفَرْحةٍ عارمة بمجرد دخوله السيارة، ثُمَّ قال وهو يتنهد:

- الحمد لله أنك هنا، لا يمكنك أن تتخيّل كم فَرِحْتُ لرُؤيتِكَ!

لم يفهم حسينٌ ماذا جرى لحسنٍ، فبادَرَه بالسؤال:

- هل ضايَقَكَ هذا الفتى المدمنُ أنت أيضًا؟

- عن أيِّ فتى مُدمنٍ تتحدَّثُ؟

- ألم تكنْ تهربُ خوفًا منه؟

- لا.

شَـرَحَ حسـينٌ إلى صديقه حسـنٍ ما وقـع له مـع الفتى قبل قليـلٍ؛ لظنّـه أن صديقَـه لم يفهم مـاذا أَرادَ أن يقول، لكنّ حسـنًا

لـم يهتمّ بما شـرحه، بل أخذ ينظر إلى عَينَـي صديقِه ويُخبره كم هو سعيد.

- كلُّ شـيءٍ جميـلٌ، أيّ شـيءٍ إمّـا أنّـه جميـلٌ فـي أصلـه أو باعتبار نتيجته.

فرَدَّ حسينٌ بقوله:

- لم أفهم ماذا تريدُ أن تقول!

فأضاء وجهُ حسن، ثم قال:

- إنْ كنـتَ قـد انتظرتَني في المكان الـذي تركتُك فيه لمزيدٍ من الوقت، لَمَا بقيت سليمًا إلى الآن؛ لسقوطِ إحدى (السَّقّالات) التـي كانـت منصوبةً فـي أحد طوابـق المبنى الذي كنـتَ منتظرًا أَسـفَله، لقـد نَجَوتَ بحياتِـك عندما تحرَّكْتَ قبـلَ دقائقَ معدودةٍ مـن سـقوطها، وعندما عـدتُ إلى المـكان رأيتُ هذه (السَّـقّالة) العملاقـة وقد سـقطتْ على صنـدوق شـاحنةٍ فدَمَّرَتْـه بالكامل، اعتقـدتُ أنـك لا تزالُ تَقِفُ هنـاك، فهَالَني الأمرُ بشـدة، ولكنّني أحمـدُ الله أنْ سـاقَ إليك هـذا الفتى المُدمِنَ لِيَقِفَ أمام سـيارتك فيُجْبِرك على مغادرة المكان!

وما أن سَـمِعَ حسـينٌ تلك الكلمات حتى خرج من سيارته؛ للبحـث عـن الفتى المُدمنِ، فقـد كان يُريد أن يـراه، ولكن الفتى

قد غادر المكانَ واختفى عن الأنظار، وكأنه لم يكن موجودًا منذ لحظات.

والآن تَحَوَّلت أضواءُ السيارات في ظلمةِ الليلِ الحالك من الحِمَمِ البركانيّة إلى حديقةٍ مليئةٍ بالأزهار والورود الحمراء، وأما أزهار الأقحوان فهي تتلألأ بلونها البهيج الأصفر بين الحين والآخر، وتتقدم السيارات على الطريق وسط هذا البستان الجميل.



سؤالٌ عجيب..!

بـدأت الحركـة تـدبّ فـي المدرسـة الهادئة وسـط أشـجار الصنوبـر، وما أن رَنَّ جرس الفسـحةِ، حتى تحوَّلَ فناء المدرسـة إلى مضمار للسباق بين الأطفال.

صـار للطلاب الذين ملَّتْ أنفُسُـهم من كثـرة الدروس مهلةٌ للجري واللعب، كالأرانب التي وُلِدت حديثًا.

وبينمـا أخـذ عددٌ من الأطفال يلعبـون ويجري بعضهم وراء بعـض، وقـفَ عددٌ آخر منهم في صفّ منتظـم أمام بائع الكعك لشـراء كعـك (الفطائـر)، وكان كلُّ ركنٍ من أركان فناءِ المدرسـة يعـجُّ بالحيـاة؛ ففـي جهةٍ تـرى بعضَ الطـلابِ يتحاسـبون على ما كان بينهم في الفسـحة السـابقة، وآخرون يلعبـون مباراةً لكرة القدم وكأنها أهمّ مباراة في العام، وفي ناحية أخرى تشاهدُ تلميذًا يقفُ يتباهى ويستعرض قدراته أمام أصدقائه...

ووسـط هذه الضوضاء كان هناك تلاميذ صامتون؛ كان سنان ومحمـود أَحَدَ هـؤلاء التلاميذ، وقد حرصَ كلٌّ منهما على قضاء وقـتِ الفسـحةِ مـع الآخرِ كأنهمـا أخـوانِ، ولذلك مـا أن يُذكر أحدهما في مجلسٍ حتى يتبادرَ إلى الذهن صاحبُه المُقرَّبُ الآخر.

كان التلاميذُ الآخرون يَرَونَ هذين الصديقينِ الحَمِيمينِ دائمًا ما يجلسان في أغلب الأحيان في رُكْنٍ من أركان المدرسة يتحدثانِ إلى بعضهما البعض، وكانا يلعبان الألعاب معًا أيضًا، لكنهما كانا يقضيـانِ أكثـرَ أوقاتِهِمَا فـي البحث عن الأشـياء الجديدة، حيث كانا مختلفينِ عن أقرانِهما، وكانت الصداقة التي بينهما من النوع الذي يمكن تناوله في فِلْم سينمائي.

كانـت الموضوعـات التـي تَشْـغَل بَالَهُما تَنْصَـبّ في مجال العِلْـم أحيانًا، وأحيانًا أخـرى في مجال القضايا العصريّة، ثم تبدأ بعد ذلك أبحاثٌ مكثَّفةٌ فيما بينهما، فقد كانا حقًّا طِفلينِ مختلفين عن أقرانهما، وكانا يَعْشقان إيجادَ أجوبةٍ على الأسئلة التي تَجُول بخاطِرهما.

صَدَرَ عن سـنان سـؤالٌ عجيبٌ ذلك اليوم؛ إذ نظرَ إلى عينَي محمود، ثم قال:

- يا محمودُ، أليس الله قد خلق كلَّ شـيءٍ في أحسـنِ تقويم،

فلماذا خلق الشيطان؟! تردَّدَ هذا السؤال على ذهنِي كثيرًا دون أن أَجِدَ له جوابًا، ولا أجدُ كذلك أحدًا يُجيبُني عليه.

أُصِيبَ محمودٌ بحيرةٍ واندهاشٍ عندما سَمِع هذا السؤال للمرّة الأولى في حياته، فقال لصديقه:

- شيءٌ مُحَيِّرٌ فعلًا! من أين خطر هذا السؤالُ على بالِكَ؟

- إن الله قد خلق جميع خلقه لسببٍ محدَّدٍ، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا خلق اللهُ الشيطانَ الذي عصى أمره؟!

أخذ محمودٌ يفكِّرُ في هذا السؤال طوالَ اليوم، وقال في نفسه: "عَلَيَّ أن أَجِدَ جوابًا لهذا السؤال"، فتذكَّر أخاه الأكبرَ الذي يدرسُ في الجامعة؛ إذ اعتقد أنّ بإمكانه أن يُجيبَ على هذا السؤال ليريحَهُ هو وصديقه سنان.

سارعَ محمودٌ إلى العودة إلى المنزل فَورَ خُروجِه من المدرسة، ثم وصل شقيقُه الأكبرُ إلى المنزل بعده بمُدَّةٍ قصيرةٍ، فلم يُمْهِلْ محمودٌ أخاه وقتًا طويلًا حتى وجَّهَ إليه سؤالَه قبل أن يخلع ملابس المدرسة، فلم يتعجَّبْ شقيقهُ مِن سؤال محمود، بل وضع يدَه على كتِفِ أخيه براحة تامّة، وذهبا سويًّا إلى المكتبة، وأخذ يبحث بين صفحات كتابٍ قد اشتراه من المكتبة وكأنه يُداعب زهرة أو صديقًا مُقرَّبًا إليه، وبعد

وقت قصيرٍ فاحَ جواب السؤال من صفحات الكتاب في الغرفة كالنسيم: "كما أن الصَّقْر يُطَوِّرُ قُدُراتِ العصفورِ على الطيران، فإنَّ الشيطانَ يُطَوِّر قُدُراتِ الإنسانِ".

أخذ الشقيقُ الأكبرُ نَفَسًا عميقًا بسعادةٍ تُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ اللذةَ التي يشعرُ بها جَدُّه عندما يرتشفُ رَشْفةً من فنجان القهوة، لم يفهم محمودٌ كل ما أرادَ شقيقُه أن يُوصِلَه إليه، ولذلك بادَرَ الشقيقُ الأكبر إلى تفسير المسألة له؛ كي يَفْهَمَها بشكل أوضح، فقال له:

- يحتاج الإنسانُ إلى شيءٍ يُطوِّر مهاراته وقُدُراته؛ كي يَرْتَقِي من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى، فإن لم يُهدِّد الصقرُ العصفورَ، لَمَا صار للعصفورِ قدرةٌ على الطيران بهذه المهارة، ولَمَا صارت مهاراتُه متطوِّرةً إلى هذه الدرجة، وبالطريقة ذاتها، فإنَّ الوَساوِسَ التي يُوَسْوِسُ بها الشيطانُ إلى الإنسانِ تَرْفَع من قدراته وإيمانه بالله، فهو أمرٌ شبيهٌ باللقاح الذي يُحقَن به جسد الإنسان؛ لمساعدته على مقاومة الأمراض.

تَعَجَّبَ محمودٌ كثيرًا من المعرفة التي يتمتَّع بها شقيقُه الأكبر، وبدا كأنّ هذه الكلمات قد سَحَرَته، وحينما أغلقَ أخوه الأكبر الكتابَ أفاق من جوّ الخيال الذي عاش فيه، وكان

لا يستطيع الوقوفَ على قدميه من السعادة، كان عليه أن يُخبرَ صديقَه سنان بما علمه من إجابةٍ عن سؤاله، ولكن يجبُ عليه الانتظار لليوم التالي، وعندما أيقنَ أنه لن يستطيع كتمانَ جواب السؤال بداخله حتى الصباح، استأذن والدته في الخروج.

كان قلبُه يخفِقُ كالعصفور فرحًا، ولم يكن يستطيعُ الوقوفَ في مكانه من شدِّة الحماس، وأخذت العباراتُ التي قَرَأَها شقيقُه الأكبر عليه تدورُ داخلَ قلبه الصغير، وطار حتى وصل إلى بيت سنان، فلم يدركْ متى وصل، ومتى لمست يدُه جرسَ الباب، ووجدَ نفسه في نهايةِ المطافِ في غرفةِ سنان.

نقل ما سمعه من شقيقه إلى صديقِهِ الصَّدوقِ، وازدادت فرحتُه بهذا الحدث، وأما صديقُهُ سنان فقد شَعَرَ بسعادةٍ وسرورٍ شديدَينِ لحصولهِ على إجابةٍ لذلك السؤال، ولزيارة صديقه له في غَسَقِ الليل.

لم يَأْبَهْ محمودٌ بظُلمة الليل الحالك بينما كان عائدًا إلى منزله؛ لأنَّ نورَ المعرفة قد أَدْفَأَ قلبَه ومشاعرَه، وأنار له طريق العودة.



حلوى الصيف

كان المتجر يشهد كلَّ صباحٍ ترتيبَ الأعمال بالطريقة ذاتِها، وأما أنا فكنتُ أَدخلُ المتجرَ بعدما أفتح الباب وأُسمِّي الله، ثم أُبادِرُ إلى فتح شُرَفِ الباب العالية كحصون القلعة بصعوبةٍ بالغة، وبعد ذلك أتناولُ الممسحةَ؛ لأبدأ في تنظيفِ الأرضيّة، وفي تلك الأثناء يقوم الأخ الأكبر عثمان بإدخال الخبز الذي تَرَكَه الفرَّانُ أمام المتجر وقت الفجر، ثم يقوم بقراءة الصحف اليومية، كان العملاء يأتون إلى متجرنا عادةً في المساء؛ بسبب حلول شهر رمضان، ولهذا السبب كان المتجر يخلو من العملاء وقتَ الصباح.

وأحيانًا، وبينما أُنهِي أعمالَ تنظيفِ الأرضيّة بالممسحة، إذا بأحد العملاء يدخل وحذاؤه مُتَّسِخٌ ويسير به وسط المكان الذي

نظفتُـه للتـوِّ، وكنت أغضب بشـدّةٍ في مثل تلـك الحالات، ولكن لـمْ أَكُنْ أسـتطـع أن أقولَ: "ارحموني! اصبـروا قليلًا حتى تجِفَّ الأرض، ثم ادخلوا كيفما تشاؤون!"؛ لأن العميل دائمًا على حقّ...

وبينما كنتُ أنظِّفُ المكان بالممسحة، سمعتُ صوتَ الباب، وحينها كنت سـألقي الممسـحةَ علـى الأرض للتعبيرِ عن غضبي مـن دخول هذا الشـخص قبـل أن تَجِفَّ الأرضيّـة، حتى لمحت ذلـك الشـخص، فـإذا هو العـمّ عادل الـذي كنتُ أعشـقُ وجهه البشـوش، إلـى الحـدّ الذي كنـتُ أظنُّ معـه أنني إذا نظـرتُ إليه من الخلف فسأجد وجهًا ضحوكًا أيضًا.

وكانت السـمَّاعةُ التي يستخدمها لضعفِ حاسَّةِ السمـع لديه تزيدُ من لُطْفِه.

كان العمّ عادل يعيش في بيتٍ صغيرٍ في أحد أركان الشارع، وكان يقوم بعمليّات تسوّقٍ محدودةٍ للغاية من متجرنا، غير أنه لم يكن يهملُ شـراءَ حلوى الصيف، وربمـا كانت هذه الحلوى هي تسليته الوحيدة.

كان العـمّ عـادل يعيشُ بمفـرده، وكأنّه قد فُـرِضَ عليه ذلك فرضًـا، بيد أني سـمعت مِمّنْ حوله أن لديـه ابنةً، حتى أني رأيت ذاتَ مرّةٍ امرأةً تنزلُ من سيارةٍ اقتربَت من بيته، ثم دخلت المنزل،

وعندما شاهدتها تدخل البيتَ، قلتُ في نفسي: "لا بدّ أن تكونَ هذه ابنتُه التي سمعتُ عنها".

كان العمّ عادلُ يُمارس مهنةَ تلميعِ الأحذيةِ أمام مقهى الحيّ؛ لعدم كفايةِ راتبِ تقاعُدِهِ متطلباتِ الظروف المعيشية، وكان عندما يعبرُ الشارعَ، وعلى ظهره صندوق تلميعِ الأحذية، يَبْتَهِجُ الناسُ والمارّةُ بفضل البسمةِ التي تعلو وجهَهُ، لدرجة أنني كنتُ أَقِفُ أحيانًا لمشاهدته.

وكان صاحبُ المتجرِ الأخ الأكبر عثمان يُحِبُّه؛ ولهذا السبب كان يداعبه أحيانًا، وقد قال عثمان في إحدى هذه المداعبات:

- خيرًا، يا عمّ عادل، هل لديك وليمة على الإفطار؟

عدَّلَ العم عادل وضعيةَ السمّاعةِ التي يستخدمها، ثم قال:

- نعم، ماذا قلتَ؟

رفع عثمان صوتَهُ، ثم كرَّر ما قاله:

- قلتُ: هل تشتري الحلوى لوليمةٍ رمضانيّةٍ؟

كان صدى الصوت يتردَّدُ داخلَ المتجرِ أو أنّه خُيِّل إلَيَّ ذلك، وعندما لم يَلْقَ عثمانُ ردًّا، نظر صوبَ العمّ عادل من فوق الميزان.

ردّ العمّ عادلُ على السؤال بصوت خَفِيضٍ، إلى الحدِّ الذي لم أتمكّن معه مِن سماعِهِ لا أنا ولا الأخ الكبير عثمانُ؛ ذلك

لأن الكلمات كانت مُقْتَضَبَةً[٨]، ودَمَعَتْ عيناه بعد سماعه تلك الكلمات، وسالت الدموعُ منها مُنْهَمِرةً كالأمطار الغزيرةِ من غير صوت...

أحسَّ الأخُ الكبيرُ عثمانُ أنه قد قال شيئًا خطأً، فبادَرَ إلى لفِّ قطعةِ الحلوى في ورقةٍ على الفور، وانتقل إلى جوار العمّ عادل، وقال له:

- ماذا حدث يا عم عادل، هل قلتُ شيئًا خطأً؟

سمع العمّ عادل السؤالَ هذه المرّة، لكنّه أجابَ على السؤال بسؤال:

- متى بدأَ شهرُ رمضان؟

ظهرت على الأخ الكبير عثمان علامةَ عدمِ فهمِهِ لما قالَهُ العمّ عادل، فوضع يدَه على كتفه، وقال:

- بدأ منذُ سبعةِ أيام.

أشار العمّ عادل إلى سماعته التي يرتديها، وقال:

- آه يا ولدي! لم أعرفْ أنّ شهرَ رمضانَ قد بدأ.

وكان العمّ عادل يبكي بكاءً حارًّا، ولا نعلمُ سببَ ذلك، على الأغلب بسببِ عدم علمه بحلول شهر رمضان المبارك.

---

(٨) مقتضبة: مُقْتَطعة غير واضحة أو مفهومة.

لـم يكـنْ يفهـمُ كيـفَ لابنتـه الوحيـدةِ التـي ضحَّى بنفسـه مـن أجل تربيتها أن تهجرَهُ، وتقيمَ في بيتٍ آخر كأنها أجنبيّة عنه؛ فقـد كان العم عـادل -الذي تُعتَبَرُ قطعةٌ مـن الحلوى هي مصدرُ سـعادتِهِ ورفاهيتـه- أُجْبِرَ علـى العيش وحيدًا حتـى لا يُمَثِّل عِبئًا على ابنته.

فلو عَرَفَتْ هذه الفتاةُ كم يحملُ لنا الآباءُ والأجدادُ مِن الخير والبركـة، وكم يَرْفَعُون عنّا من الابتلاءاتِ والمصائبِ، ما اقتَرَفَتْ هذا الفِعْلَ وتَرَكَتْ والدَها على هذه الحال!

كمـا أن قِطْعةَ الحلوى الموضوعة علـى منضدةِ البائـع بَدَتْ وكأنها فَنَّانٌ لا يَرْغَب في أن يلعبَ دَوْرَه في الحكاية؛ لا شيءَ إلا لأنها قد فَقَدَتْ بذلك قِيمَتَها وطَعْمَها اللذيذ المعهود لدى الناس.



الغِنَى... غِنَى النَّفس

استيقظ فخرُ الدين هذا الصباحَ مُتْعَبًا كما هو الحال في كلّ صباح، ورفع عينيه عاليًا ناظِرًا إلى السقف، ومُمْعِنًا النظرَ في الضوء النافذ إلى البيت.

كان ضوءُ الشمسِ يَنْفُذُ من الفراغ الموجود بين لَبِناتِ بيته الصغير إلى الداخل، وكانت ظُلمةُ الليل تتسرَّبُ كذلك من الفراغ ذاته كالأمطار، وكان بعض الطيور يدخلُ أيضًا من هذا الفراغ، وكان فخر الدين كلّما فَكَّرَ في الضرر الذي ربّما يلحق الطائر إذا دخل بيتَه ينزعج ويشعر بقلقٍ شديد؛ حيث إن بعض الطيور كانت تصطدم بالجدران؛ بسببِ الظلامِ الدامس، ثم تقفُ عاجِزةً في إحدى الأركان.

كان فخر الدين يعيش منذ شهور في هذا البيت الصغير الواقع داخل ساحة مُعَدَّة للإنشاء، وهو راضٍ لا يتأفّف من هذه المعيشة، ولم يشتكِ من إقامته في الغربةِ وعدمِ قدرتِهِ على رؤيةِ أسرتِهِ، ولكن كان هناك شيء آخر يشغل بَالَه ويُحزِنُه، وهو النظرة الدونية

التـي ينظـر بها الناسُ إليه، فـكان قلبُه يَعْتَصِرُ ويقطـرُ دمًا من جرّاءِ تلـك المعاملة التـي كان الناس يعاملونه بها، وكأنّـه لا قيمةَ له في هذه الحياة؛ حتى إن بعضَهم كان يناديه وكأن ليس له اسمٌ، ويقول: "هييـه! أنتَ أيها الشـخص الذي يقفُ هناك! نعـم، أَقْصِدُكَ أنت، تعال إلى هنا!".

كان يسـتيقظُ فـي الصبـاح الباكـرِ مهمـا كانـتِ الظـروفُ، ثـم يجلسُ على الأريكةِ التي صنعها من أخشـاب البناء للحظاتٍ حتى يزولَ عنه تعبُ العمل، ثم يتناولُ وجبةَ الإفطار.

كان الموقـدُ الـذي يعمـل بأنبـوب الغـاز يُعْتَبَـرُ المطبـخَ في بيت فخر الدين، وكان إفطاره عبارةً عن بضـع زيتوناتٍ وقِطَـعٍ من الخبز وأحيانًا كان يتناولُ بيضًا مسـلوقًا، وعندما يشـربُ عدّة أكـوابٍ من الشـاي كان هذا يعني أن يومَه قـد بدأَ، وما أن يتناول الإفطـار حتى يبدأَ عمله مباشـرةً ويسـتمرّ إلى المسـاء بين لَبِنات الطوب والملاط[9] والمَساحل[10] والرمل والحصى.

يعمـل فخـر الديـن في هذا المـكان منذ شـهور، وقـد أَخْبَرَ العاملين باسمه أكثرَ من مرّة، لكنهم رغمَ ذلك لا يزالون يُخطِئون

(٩) الملاط: الإسمنت أو الطين المستخدم في البناء.

(١٠) المساحل: جمع مسحلة، أي: المنخل.

فـي التلفُّظِ باسـمه وينادونه بأسـماء: "نور الديـن" و"خير الدين" و"كمال الدين"، لم يكن فخر الدين يهتمّ بكلّ هذه الأشـياء، لكن مـا كان يحزن قلبـه ويدفعه أحيانًا إلى البكاء هو أن يناديه أحدهم بقولـه: "يـا...! نعـم أنت، تعال إلى هنا!" باسـتكبار واسـتعلاء، ويُبرِّر ذلك بقوله: "لقد نسيتُ اسمَك".

كان يبكـي كثيرًا بسـبب هـذا الأمر، ويقول: "لَدَيَّ اسـم هو فخـر الديـن"، ويسـتمرّ أحيانًـا في البـكاء حتى الصبـاح، كانت نبرةُ صوتِ بعضِ الأشـخاصِ وقسـوةُ إشـاراتِ أيديهم وتجنُّبهم مصافحَتَه يُشْعِرُهُ كذلك بالحزن والضيق الشديدين.

أثار هذا الأمر كثيرًا من الأسئلة ليس لها أجوبةٌ لديه، وشَغَلَتْ عَقْلَـه حتـى الصبـاح، كان يحاول دائمًـا أن يَعثُرَ علـى الفرق بينه وبين الأشـخاص الذين يعاملونه بهذه الطريقة، لكنّه لم يكن يعثرُ على الجواب المقنـع، فيحدّث نفسه قائلًا:

- لقـد ولدتْـه امـرأةٌ، وأنا أيضًـا... لديه أذنان، وأنـا أيضًا... لديـه قلب يمكن أن ينجرح، وأنا أيضًا... كلانا يضحك ويمشـي ويَغطِسُ وينام... ويمرض ويجوع ويشعر بالبرد... كلانا إنسانٌ... كلانـا لَفَّه أهلُـه بقِماطٍ أبيض عندما وُلد، لكـن الآن نرتدي ألوانًا

مختلفـة مـن الألبسـة، فمـاذا تغيرّ غيرَ هـذه الملابـس؟! هل هذا يستدعي منّنا أن نفقد إنسانيتنا؟!

لـم يكـن فخر الدين يشـعر بهذه المشـاعر السـلبيّة في نومه أو صلاتـه؛ حيـث إنه لـم يكن هناك أحـدٌ يُعامله وكأنّـه مجهولُ الهويّةِ، أو يناديه "يا...، أنت أيها الشخص!".

كان يشـعر بسـعادة غامرة في صلاته، ويُحِسُّ كأنه مدعوٌّ إلى زيـارة سـلطانٍ في قصـره، لم يكن يرغب في انتهـاء الوقت الذي يُـؤَدِّي فيـه صلاته، فمالك كلِّ شـيء في هذا الكون يسـتقبله في حضرتـه وهـو يرتـدي ملابس ملطخـة بالمِلاط، وهذا ما يشـعره براحة نفسية.

سـيطرق أصدقـاؤه بـاب بيته الصغيـر بعد قليـل يدعونه إلى العمل؛ ليبدأ كفاحَهُ من جديدٍ.



الرضا مفتاح السعادة

كان صــوتُ الريــاح المتســرِّبة مــن فراغــات الزجــاج يؤذي مشاعرَهُ، بينما عيناه شاردتان تمامًا في القلم الذي يمسكه بيده.

كانــت روحــه تقفــز مــن بيــن الخطــوط الســوداء للقلم من حــرف إلى حرف، وتقفُ عندما تصِلُ إلى النقاط، وتنزلق أســفل الفاصلات، وعندما يظهر أمامه قوسانِ كان يشعر بالخوف كالطفل الصغير الذي يخشــى أن يُكْمِلَ أكلَ حلوى التفاح التي يمســكها؛ ذلك لأن علامات الإشــارة التي تَقِفُ على الورقة كالسيفِ كانت تُحاوِلُ ثَقْبَ الورقةِ وطَعْنَ قَلْبِهِ بنَصْلِها الحادّ، ولهذا الســبب كان يرغــبُ فــي إغلاقِ جميــع الأقواسِ التــي فتحها، لكنّ المشــاعرَ الموجودةَ داخلَ الأقواس المفتوحة كانت تُحِسُّ بالبرد في لهيبِ البركان الثائر.

لم يستطـع التحمُّلَ أكثر من ذلك، فألقى القلمَ على المنضدةِ وســطَ الأدوات المبعثــرةِ الموجــودةِ عليها، ورغــب في أن يلقي بنفسه إلى الخارج؛ ليلتحق بالزحام الموجود في الشارع.

ارتـدى إحـدى ذراعي سـترته، ثم نزل مسـرعًا على السُّـلَّم كالفراشة التي تطير، وعندما خرج إلى الشارع، بدأت عيناه تبحثُ عن شيءٍ تافهٍ؛ كي يُثيرَ أعصابه.

وبينمـا كانـت الكلمات القاسـيةُ تقطِفُ من أغصان أشـجار الدمـوع واحدةً تلوَ الأخرى، لم تخـرجْ دمعةٌ واحدةٌ من المحيط الذي بداخله.

إنه لا يزال يبحثُ عن السؤال الذي يتردَّدُ في ذهنه بينما يسيرُ في الطريق.

كانـت الأسـئلةُ كالإبرةِ التـي تَخِزُ قَلْبَه، وتُشـعِرُه بألَـمٍ كبيرٍ، أسئلةٌ كثيرةٌ مُتتاليةٌ تبدأ بالسؤال: "لماذا لا يكون لديك حياةٌ أنت أيضًا كالآخرين؟"، وتتزاحمُ الأسـئلةُ في ذهنه: "لماذا لم تصبح غنيًّـا إلـى الآن؟"، "لمـاذا لا تمتلـكُ كنـوزًا وراء جبـل قاف؟"، "لماذا...؟! لماذا...؟! لماذا...؟!".

انهالـتِ الأسـئلةُ من عقله إلـى عينيهِ، ثمّ من عينيـه إلى كُرَةٍ صغيـرة من البورسـلين (البِلْيَـة)[١١] موجودة علـى الأرض، تذكَّرَ عندمـا كان طفـلًا صغيرًا لـم يكن يأكل ولا يشـرب ويلهثُ وراءَ

(١١) البلية: كرة زجاجية أو برسلانية صغيرة يلعب بها الأطفال.

تلك الكُرَات، وكان يسعى لامتلاكِ أكبرِ قدرٍ منها بغضِّ النظر عن اتساخِ يديه وجيوبه بسببها.

لا يشعر الآن بقيمة تُذكر لهذه الكرات التي كانت تُمَثِّلُ قيمةً كبيرةً له عندما كان صغيرًا... رَكَلَ أحلامه وكذلك الكُرَات الموجودة على الأرض والمضيئة في ظلمة الليل، كَبُرَتِ الكرةُ المتدحرجة في قلبه لتصيرَ مِثلَ كُرةِ الانهيار الثلجي، ثم سقطت في مجرى الصرف.

ظهر ظلامُ مجرى الصرفِ بشكلٍ مختلِفٍ في عينيه؛ بفضل الضوء الغريب الذي انعكَس من واجهة المتجرِ الزجاجية، بدأ بالتفكير في الواجهة التي تبعثُ الضوءَ، ثم انتقل للتفكير في تماثيلِ العرضِ التي لا تَتَحَرَّكُ وهي مُغَلَّفة بأوراق الصُّحُف؛ الأمر الذي أثار تعجُّبَهُ واندهاشَهُ، فقد غلَّف العاملون في المتجر تماثيلَ العرض بأوراق الصُّحُف لعدم وجود ملابس، استرعى انتباهَهُ عندما لاحظَ عينَي تمثالِ العرضِ تبدو وكأنّها تتحرّك.

نظر حوله ليتأكّد من رؤية شخصٍ آخر لهذه التماثيل، ثم فركَ عينيه وهمَّ بمغادرة المكان إلى أن رأى صاحبَ المتجر يدخُل الواجهة الزجاجيَّة وهو مُمسِكٌ ببعض قطع الملابس، ركَّزَ أفكاره الشاردة على صاحب المتجر وهو يُلبِس تماثيلَ العرضِ

الملابسَ بسرعة كبيرة، وكان ينظر إلى هذه التماثيل وهو لا يفهم بالضبط لماذا يشاهدها!

بدأت أشياءُ غريبةٌ تحدُثُ في الواجهةِ الزجاجيّةِ للمتجر؛ فما أن ألْبَسَ صاحبُه تماثيلَ العرضِ الملابسَ، حتى توقَّف مشهد الفِلْم في تلك اللحظة، وبقي تمثالُ العرضِ والشابّ في المشهد، وكأن الوقت والرياح وحتى حركة المرور المزدحم قد توقَّفتْ.

خلع تمثالُ العرضِ الملابسَ مِن على جسدِه بسرعةٍ دون أن تطرف عيناه الجامدتان بينما كان الشابّ ينظر إليه، وألقاها على الأرض مُتَذمِّرًا، فالشابّ الآن يسمع صوتَ التمثال وبدأت عبارات السُّخْط تَخرُج من التمثال الواحدة تِلْو الأخرى:

- أهذا الذي وَجَدْتَه مناسبًا لي؟ لي أنا؟!

- ...

بيد أني أُزَاوِلُ هذا العملَ الصعبَ، ولا أبخلُ بوقتي ولا جهدي من أجل إنجازه، فهل هذه هي القيمةُ التي تمنحني إياها؟!

وفي تلك الأثناء بادَرَ صاحبُ المتجر إلى دخول واجهة العرض الزجاجيّة؛ من أجل أن يرى منظرَ الملابس التي ألْبَسَها

تمثالَ العَرْضِ، وعندما شاهد الملابسَ وقد خُلِعت عن التمثال وطُرِحت أرضًا، سأل بشكلٍ عَفْويّ:

- مَنْ فَعَل هذا؟

فأجابه التمثال بجرأةٍ لا يتمتَّع بها بعض البشر بقوله:

- أنا مَنْ فعل هذا! هل لديك اعتراض؟!

- أأنت مَنْ فعل هذا؟

سيطرت حالة من التكبُّر على التمثال، وقال:

- بالطبع أنا من فعل هذا، انظر إلى هذه الخِرَق التي أَلْبَسْتَنِي إيَّاها وأنت لا تُقدِّرُ المجهود والوقت اللذين أَبْذُلُهما من أجل متجرك! هل أُشْبِه تَماثيلَ العرض الموجودة في واجِهات المتاجر الأخرى؟ لماذا لا أَمْتَلِك ما يمتلكون؟

لم يكن صاحبُ المتجر أو تمثالُ العرض يَرَى الشاب الذي يتابعهما مِن أمام واجهة المتجر وهو ملتصقٌ بالزجاج كالقطة، لوَّحَ الشاب بيده عدَّةَ مرّاتٍ على أمل أن يلاحظاه.

ما قاله تمثال العرض يُشبه صوتَ الشابّ وكلماته، فتنبّه الشابّ وتساءلَ ألَمْ يكن هذا التمثال يشبهني؟

تواصلت المشاهد بشكل سريع، ورفع التمثالُ صوتَه، وقال:

- لماذا لا تنفِّذ رغباتي؟ فلماذا أنا؟! لماذا...؟!

فأجاب صاحب المتجر على السؤال بطريقة جميلة وهادئة للغاية:

- انتظِر دقيقةً! عن أيّ بضاعة وملابس تحاسبني يا ترى؟ وكيف تَجْرُؤ على التحدُّث بهذه النِّدِّيَّة وكأنك مثلي وأنت لا تملك أيّ شيءٍ ملكيةً خاصةً؟ فلا تَنْسَ أنك بكل ما لديك تعتبر مِن ضِمْن بضاعتي التي أملكها!

وصل المَشْهَد إلى قمَّةِ السخافة في عبارات التمثال الاعتراضيّة المضحكةِ وحركاته الهزليّة؛ الأمرَ الذي أَضْحَكَ الشابّ المتفرِّج الذي استفاد من هذا الفِلْم دون أن يُكمِل مشاهدته، وفَهِمَ كَمْ كانت أفكارُهُ خاطئة.

وفَطِنَ إلى أنّ حالتَهُ بسيطةٌ للغاية، مثل طفلٍ يُعلّق ذهْنَه بعددٍ من الكراتِ الصغيرةِ الملوّنة، يَجْري وراءها ويَبْكي لفقدانها.

تَحَوَّلَ الشابّ ببصرِهِ إلى مجرى الصرفِ الذي سقطت فيه الكرةُ، فلاحظَ أن الجميع قد تجمَّع هناك، لكن لم يلحظ أحدٌ أنه استيقظ من لُعبة خيال الظلّ التي سبح في فضائها للحظات.

وبينما كان الرصيف يتناغم مع الأشعار، ومصابيح الليل تتنافسُ مع بعضها البعض، فَهِمَ بكلّ كيانه أنَّ كلَّ شيءٍ جميلٌ

جـدًّا في هـذه الحياة، اعشـقْ... وابتهـجْ... علت وجهَهُ بسـمَةٌ، ورأى كـراتِ الزجاج التي أخذ يجري وراءَها في منامه ليلًا حتى الصباح.

ضحكَ على ما بكى عليه، وبكى على ما ضحكَ عليه.



ولكن... الباقيات الصالحات

- واحد، اثنان، ثلاثة...

- خمسمائة...، ستمائة...، سبعمائة...

- إنها أعدادٌ كبيرةٌ أليس كذلك؟

- ماذا! لم أفهم...

- لا لا، لقد فهمتَ ولكنك تُظهر عدمَ فَهْمِك.

- ...

- على أيِّ حالٍ، أليست كثيرة؟! هل تعلم كم من جهد بذلتُ من أجل أن أجمعَ هذه الكمِّيَّةَ من البِلْيَة؟ لكني أريد المزيد منها، أريد أن يكون لديَّ أكثرُ من أيِّ شخصٍ... أريد الكثير والكثير منها...

- ماذا ستفعل بها؟

- هل تقولُ لي ذلك؟ سأفعلُ ما ستفعلُه.

- ما تجمعه ما هو إلا بلية فقط...

- قـد تكـون مُحِقًّا، ولكن هذه البليةَ تحمل قيمة كبيرة لي... إذًا قل لي: لماذا تجمعها أنت أيضًا؟

- ولكن ما أجمعه هو أموالٌ وذهبٌ، وليس قطعًا من الزجاج كالتي تمتلكها!

- ومـا أهميـة ذلك؟ فأنا مثلك أحـبّ أن يكون عددها كثيرًا، وأريد جمع المزيد منها دومًا...

- ...

وقـف الرجـل والطفـل لوقـت طويل، تنـاولَ الرجـلُ حفنة مـن البِلْيَةِ والذهبِ الموجود على الطاولة، وألقاها على الأرض، ثم نظر إليها وبكى؛ فقد سيطرت هذه الأشياء على حياته.

غـادر الطفـل الـذي كان واقفًا أمامـه، وكان هـذا الطفل هو طفولتُـهُ وقـد تجسَّـدتْ أمام عينيـه بعدما هاجَرَتْ مـن الماضي، وقف أمامه طوالَ الليل، ووَجَّهَ له أسئلةً غريبة للغاية؛ الأمر الذي دفعه للتفكيرِ لساعاتٍ طويلةٍ.

فَكَّـرَ فـي الأشـياء التـي طَالَما سـعى سـعيًا حثيثًـا من أجل جمعها حتى سنِّه هذه، وصَفَّهَا في صفٍّ واحد... طوابـعُ البريد، والأوراقُ التـي تخرج من عُلَـب العلكة، وأغطيةُ زجاجاتِ المياه

الغازيـة والبليـة والملابـسُ والأمـوالُ والذهبُ... فلـم تَغْذُ هذه الأشياء تُضْفِي طعمًا إلى حياته.

بدأ يُعيدُ حسـاباتِهِ حـولَ الحياةِ عندما تُوُفِّـيَ أقربُ أصدقائه أمس الأول، فكَّرَ كثيرًا أثناءَ مراسـمِ الجنازةِ، وفي الطريق، وأثناء النوم، وأثناء ذهابه إلى العمل، وأثناء عودته منه.

تَذَكَّـرَ العبـارات التـي تلاها الإمـامُ من كتـاب كان بيده بعد أن أنهَـوْا صـلاةَ الجنازة علـى صديقه، حيث قـال: "أنت ضيفٌ فـي هذه الدنيا، وسـتذهبُ إلى مكانٍ آخَـرَ عند موتِك، فلا يُمكن لضيـفٍ في هذه الحيـاة الدنيا أن يُعَلِّق قلبَه بأشـياء لن يصطحبها معه وهو مفارقٌ لها، فكما أنك تغادرُ هذا المكان وتخرجُ من هذه المدينـة، فإنك سـتغادرُ هذه الدنيا الفانيـة، وإن كان الأمر كذلك فحاول أن تخرج منها عزيزًا"، حاول، حاول، حاول...

لقد أحدثت هذه العبارات دَوِيًّا في صحنِ المسجدِ الرخاميّ، وفـي النافورةِ وفي جدار المسـجد وفي جدار البيت، حتى داخل البِلْيَةِ الزجاجيّة...

فطِن إلى أن الأفكار التي نَمَّاها بداخله غير مُبرَّرة، بكى على كلِّ ما جمَعَهُ، وعلى الوقت الذي فات...

وقـد رأى في مراسـمِ الجنـازةِ أيضًا صفوفًا مـن النَّملِ الذي يحمِل فتاتَ الخبزِ والبسكويتِ بانتظامٍ عجيبٍ...

كمـا رأى الحَمَـام الأبيـض الجميـل يطيـرُ حتـى إذا وصـل إلـى صفوف النمل الْتَهَمَ نملةً وهـي تحملُ فتاتُ الخبز، فما كان مـن النمـلِ إلا أن توَقَّـف للحظات، ثم ما لبـث أن واصلَ العملَ الـذي كان يقومُ به من قبلُ، وكأنَ شـيئًا لـم يحدثْ... وكأن ليس هناك نملة رفيقة لهم قد التهمتها الحمامة قبل قليل.

فلقـد حَطَّمَتْ هذه الواقعةُ الأبراجَ المُشَـيَّدة في عَقْلِه، لِيَحُلَّ مَحَلَّها الأشياء الحقيقيَّة والضروريَّة.

وهكـذا يُشـبِه النمـلُ الإنسـانَ؛ فكمـا أنّ النمـلَ يصطـفُّ فـي صفـوفٍ منتظمـةٍ، فكذلـك الإنسـان يصطـفُّ فـي صفـوفٍ منظمـةٍ... وحينما تأتـي اللحظة الفارقة يتـركُ كلُّ فريقٍ ما جَمَعَه في هذه الحياة الدنيا ويغادرها...

فمـا كانت تقومُ به النملةُ هو مهمّةٌ ذاتُ قيمةٍ أُسـنِدت إليها، فكانـت تقـوم بأدائها على أكمـل وجه، ولهذا السـبب فما كانت تجمعـه هـو ذو فائـدةٍ أيضًا، فكلّ قطعـةٍ من فتـاتِ الطعام كانت تجمعها لمشاركة مثيلاتها من النمل في الأكل والاستعداد لفصل

الشـتاء، وتنظيف الطبيعة... فما كانت تقوم به النملة هو وظيفتها في هذه الحياة...

كانت البِلْيَاتُ الزجاجية تعني له أهميةً كبيرةً للغاية وقتما كان طفـلًا صغيـرًا، أما الآن فهذا يعتبر مصدر فكاهة له، فهذه الكُرَات المضحكةُ حَلَّتْ مكانها قطـعُ الذهب، وما لم تُستَثْمَر هذه القِطَـع الذهبية في أعمال جيّدة، فسـتصير مُضحِكـة وعديمةَ الفائدةِ مثل هذا البِلْيَات.



لَستَ وَحدَكَ!

كان كلُّ شيءٍ أسود شديد السواد كتلك الحروف... والسماء والليـل والمـكان الذي جَرَتْ فيه الحكاية، والشـارع الذي انفجر مصباحه، وواجهةُ المباني المطليَّةُ بالزفت للحيلولة دون تسـرُّبِ مياه الأمطار، وعيون خالد، وقرون استشـعار النملة التي اعتادت على زهرة الريحانِ الموجودةِ أمام زجاجِ النافذةِ... كلُّ شيءٍ كان أسودَ شديدَ السواد، لكن لا تسألوا من هو خالد؛ فهو ذلك الفتى الـذي يصيحُ ويصـرخُ بصوتٍ عالٍ وسـطَ ظلمةِ الليـل الحالك، انظروا، فهو لا يزال يصيح:

- عاش البطل... يحيا البطل...

لم يُنهِ هُتافَهُ من نافذة البيت حتى ناداه أصدقاؤه قائلين:

- لا تفعل ذلك يا خالد، مَنِ الذي جاء بفكرةِ إطلاقِ الألعابِ الناريّةِ في هذه الساعةِ المتأخِّرةِ من الليل؟

- لمـاذا تتذمَّـرُ يا سـعدُ؟! نحن نحتفـلُ بفوزنـا بالبطولةِ مرّةً واحدةً في العام يا عزيزي!

- أنـت تَتَحَجَّـجُ بحجـجٍ فـي كلِّ مـرّةٍ، لكننا لم نَنْسَ بعدُ ما حدث في الأسبوع الماضي.

- هـل كنتَ تريدني أن أصمتَ ولا أعبّرَ عن مشـاعري بينما كان صديقي سيذهب لأداء الخدمة العسكرية؟

- مـاذا تقـول عن الصخـبِ والضجيج اللذين تسـببتَ بهما المرّة التي سبقت تلك الواقعة؟

- وهل أصبحتَ أنت موظفًا لتسجيل الأحداث! أهنّئك على هذه القدرة على التسجيل يا صديقى..

- نحـن كالـركاب الذين يسـافرون على متنِ سـفينةٍ واحدةٍ، فكمـا أنّ أحـدَ ركّابِ السـفينةِ لا يسـتطيعُ أن يخـرقَ أحـدَ أطراف السـفينةِ ببلطة، ويقول لسـائر الـركاب: "ليس لكم الحقّ فـي الاعتـراض؛ إذ إنني أخـرق الجزءَ الخاصَّ بـي"، فإنك أنت أيضًا لا تستطيـع أن تقول ذلك.

- يـا إلهـي! ماذا فعلتُ الآن؟! فأنت كوالدي، لا يفتأ يُسْـدِي النصح إلَيَّ.

مرّت أيامٌ منذ هذه الواقعة، وبدأت الدراسـة الجامعية، ولقد نسـيَ الشـبّان الذين يعيشون معًا في المنزل نفسه ما حدث بينهم، أو بالأحـرى فـإن خالـدًا فقط هو الـذي نَسِـي، وذات ليلةٍ بدأت

أشــياءٌ عجيبةٌ تحدث في المنزل؛ حيــث رأى خالدٌ صديقه طارقًا الذي يُجفِف شعرَه بمجفِفِ الشعر وهو جالسٌ على مقدِّمةِ السرير في منتصف الليل، يصيح قائلًا:

- يا إلهي! ما هذا الطنين! طارق! يا طارق!

- هل ناديتني؟

ردّ عليه خالد والنوم يسيطر على عينيه:

- لماذا تجفِّفُ شـعركَ في هذه السـاعة المتأخِّرة من الليل؟ يا لكَ من شخصٍ عجيبٍ!

ثم غطّى رأسَــهَ بالوســادة، فأدركَ طارقٌ الخطأ الذي ارتكبه، وقال:

- نعم، أنت محقٌّ.

ثم أغلق المصباح، وخرج من الغرفة، ولم يمضِ نصفُ ساعةٍ حتــى ســمع خالدٌ ضجيجًا قادمًا من الصالــة أَقَضَّ عليه مضجَعه وحرمه من النوم مجدّدًا، فنهض من فراشه، وتوجَّه صوبَ المكان الذي يُصْدِرُ الصوتَ الذي أقلقه.

وفــي تلــك الأثناء، تبادر إلى ذهنه ســؤال: "ماذا ســأفعل إذا كان مَــنْ بالداخل لِصًّا؟"، وما أن بادر بالرجوع لطلب المســاعدة حتى فُتِح البابُ، فأوشــك خالدٌ أن يَفْقِدَ وعيَهُ من الخوف، وفكَّرَ

فـي الصيـاح بأعلـى صوتـه حتـى اكتشـفَ أن مَـنْ كان بالداخل هـو صديقـه كـرمٌ، فخَـرَج الخوفُ مِـن قلبه وسَـكَن، فقـال كرمٌ بحماسٍ كبير:

- يا خالد! تعالَ انظرْ ماذا سأُريك.

- يا كرم!

- اشـتريت لوحـةً جديـدةً، وأحـاولُ تعليقها علـى الجدار، ما رأيك؟ هل تعليقُها على هذا الجدارِ مناسبٌ؟

- ...

حـاول خالد إقناع صديقه أن الوقـتَ متأخِرٌ جِدًّا، لكن كرمًا أخـذ يقـول جُمَـلًا وعبـاراتٍ عشـوائيةً حتـى علَّـقَ اللوحة على الجدار، ثم قال وكأنَّ شيئًا لم يحدثْ:

- كمْ هيَ جميلةٌ!

ثم توجَّهَ نحو غرفته، وأما خالدٌ فأصابتْه حيرةٌ مِن أمره وسط هذا البيت، فتوَجَّهَ هو الآخر إلى غرفته وهو يَحُكُّ رأسَه؛ فلم يكن ثَمَّةَ داعٍ لمزيد من الانتظار.

ودخل خالدٌ إلى فراشه، وتَمْتَمَ قائلًا: "إذا ذهبت إلى الجامعة وأنـا على هذه الحالة فلَرُبَّمـا أنام هناك واقفًا!"، وحاول إغماض عينيـه كـي يخلد إلـى النوم، وأخذ يتقلَّـبُ يَمْنةً ويَسْـرةً على أمل

أن يغلِبَهُ النوم، ولكن دون فائدة، وأحسَّ بالتعبِ من إغلاق عينيه بإحكامٍ من أجل النوم، وفي تلك الأثناء فُتح باب الغرفةِ فتحةً صغيرةً، غير أنَّ صاحبنا لم يرغبْ في الالتفات إلى الباب حتى لا يجافي النومُ عينيه مرةً ثانيةً.

وعندما أضاءَ الشخصُ الذي فتحَ بابَ الغرفةِ المصباحَ، استشاط خالدٌ غضبًا، وفتح عينيه، فإذا بسعد هو مَنْ دَخَل الغرفةَ؛ للبحث عن بعض الأشياء في مكتبة خالد، لا، لم يكن يبحث عن شيء في المكتبة، بل كان يقلبها رأسًا على عقب، بادر خالدٌ بشكلٍ عفويٍّ إلى نزع اللحاف من فوقه، وبدأ يتكلم:

- انتظر فإني أشكُّ أن الوقتَ ليس منتصف الليل، وأنك أنت لستَ حقيقيًّا، أي أنك استمرارٌ للكابوسِ الذي رأيتُه قبل قليل، وستَقوم بعد قليل بهدمِ المكتبةِ فَوقي، ثم تضحكُ وتُقَهْقِهُ وتغادرُ الغرفةَ.

- عن أي كابوس تتحدّثُ؟ أريدُ فقط أن أعثرَ على كتاب من أجل محاضرة الغد، وعندما تذكرتُ هذا الأمرَ، طار النومُ مِن عينيّ.

- عندما ذهب النوم عن عينيك أتيتَ لتزعجَنِي في نومي!

بدا الخجلُ على سعدٍ، واحمرَّت وجنتاه، ثم قال:

- ولكن! أنا فقط...

ثم غادر الغرفة قبل أن يكمل كلامه، وأما خالدٌ فقد أَمْسَى لا يستطيع النومَ، ولم تمرّ دقائقُ معدودة حتى سمع صوت الحاسوب قادمًا من الصالة، فاستشاط غضبًا.

سمعَ أصواتَ قنابل تنفجر وطائراتٍ تطير، أخذ يركض حتى وصل إلى الصالة، وعندما فتح الباب وجد أصدقاءه سعدًا وطارقًا وكرمًا يجلسون أمام الحاسوب، ووجدهم لا ينظرون إلى الحاسوب، بل ينظرون إليه منتظرين دخوله من الباب، ويضحكون ويقهقهون.

فكانت هذه الأصوات التي أطلقها أصدقاؤه تَغْني: "هل نَسيتَ عندما كنتَ تصرخ فرحًا بفوز فريقك بالبطولة؟"، و"هل تعلمت الآن قواعد العيش في سفينة واحدة؟".

فتح خالد الباب، ولم يستطع إغلاقه مجدّدًا، فقد أُعجِب بهذه اللعبة الصغيرة، وشاركهم في اللعب، وبدأ يضحك معهم، وبينما كان الليل والشارع وقرون استشعار النملة شديدةِ السواد إلى الآن، كانت قلوب خالد وأصدقائه مضيئةً وعامرةً بالسعادة.

ليلة البدر

لاحـظ الصديقـان الألعـابَ الناريّةَ التي انفجـرت في الهواء أمامهما عندما استدارا إلى الزاوية وهو مشهدٌ جميلٌ؛ حيث تَتَلَألأُ الألوان المبهجةُ في السـماء، فوقفا ليشاهدا هذا المشهدَ بحماسٍ كبيرٍ.

وبادر سـائقو السـيارات إلـى تنبيهِهمـا إلى أنهمـا يقفانِ في منتصف الطريق؛ مما دفعهما إلى مواصلة السير.

تجاذب الصديقـانِ "بربروس" ومحمدٌ أطراف الحديث فيما بينهمـا، وانشـرحَ صدرهُمُـا لذلـك، وأخـذا يسـترجعان ذكرياتِ الماضـي؛ إلى الحدّ الـذي لم يرغبْ معه «بربـروس» في ركوب أيّ حافلـةٍ مـن الحافـلات العابـرة؛ لكيلا يقطـعَ حديـث صديقِهِ معـه، تأثّر "بربروس" باللوحة الفنِيّةِ التي رسَـمَتْها الألعاب النارية في السـماء أكثر من صديقه لامتهانه مهنةَ الرسـمِ، فوَخَزَ صديقَه محمدًا في كتفه قائلًا:

- يا صديقي، في الحقيقة لقد بالغوا كثيرًا في إطلاق الألعاب النارِيّةِ في الهواء.

- ...

- انظر كيفَ يطلقونها كأنهم يطلقون قذائفَ مدفعيّة، أعتقدُ أنهم لو وضعوا مزيدًا من البارود ربَّما تتحوّلُ هذه الألعاب إلى أسلحةٍ ناريّةٍ، لكن عَلَيَّ أن أعترفَ أنهم يطلقونها بشكلٍ بارعٍ ومتميّزٍ.

صَمَت الصديقانِ عندما سَمِعا المزيد من الألعاب الناريّة تُطلَق في الهواء، وأخذا ينظرانِ إليها وهي ترسم أضواءً من الألوان الحلزونيّة التي تتلألأ في السماء كالثريّا، عدَّلَ "بربروس" وضعيةَ حقيبةِ الرسم التي كان يحملها على ظهره، وحكَّ لحيته، ثم قال:

- أتدري يا أخي محمد، أنه يجب عَلَيَّ أن أعملَ لأسابيعَ طويلةٍ من أجلِ رسمِ لوحةٍ كهذه، ومهما استخدمتُ من الألوان المتنوعة على اللوحة، فإنني لن أستطيعَ إبداعَ مثلَ هذا التأثير أبدًا، لكن ماذا يفعل هؤلاء الناس بهذا القدر من البارود، انظر لجمال هذه الألوان والأضواء!

- أنا لا أعترفُ بذلك يا صديقي، وأُومِنُ بأنَّ بعضَ هذه الألعابِ يكون من قبيلِ الإسرافِ والمبالغةِ، وكان يجب عليهم

إخبارُ جيرانهم بأنهم سيطلقون تلك الألعابَ الناريّةَ حتى لا يفزعَ أحدٌ بسبب أصواتها، نحن لدينا علم بهذا الأمر، ولذلك لا نخاف من صوتها، فماذا يفعل من لا يعلم؟! أتعلم أني عندما سمعت هذا الصوتَ للمرّةِ الأولى سيطَرَتْ عَلَيّ حالةٌ من الرعبِ، وكِدتُ أُلْقِي بنفسي على الأرض وسطَ الشارعِ بين السيارات؛ لظنّي أنّ ما انفجر إنما هو قنبلةٌ وليستْ ألعابًا ناريّة.

- ...

تابَعَ محمدٌ كلامَه بصوتٍ منخفضٍ استحياءً مِن أن يسمعه مَنْ حوله في محطة الحافلات:

- شَعَرتُ بالراحة عندما لم يُعبِّر بقيةُ الناسِ عن ردِّ فِعلهم الغاضبِ تجاه تلك الألعاب النارية، وإلا فإنني كنت سأُلقيَ بنفسي وسطَ الطريق الموحلِ بالطين.

سَمِع الصديقانِ رجلًا يضحك ويُقَهْقِه وراءهما، فالْتفت محمدٌ وراءه، وقبل أن يسارعَ إلى سؤاله عما دفعه إلى الضحكِ والقهقهةِ، لاحظَ أن الرجلَ لا يضحكُ على كلامه، بل يضحك على كلمات سَمِعها ممن يُحدِّثه عبر الهاتف المحمول، فأدار محمدٌ رأسَه إلى الأمام دون أن يُبيِّن ما كاد يقع فيه من موقف مضحك.

ضحك "بربروس" على الكلمات التي قالها صديقه محمد، ثم بدأ يشرح الجانبَ الفنيَّ في ألوان الألعاب النارية والأضواء التي رسمَتْها في السماء، وتحدّثَ عن الألوان والأضواء وتأثيرِهِمَا وتناسقهما... ثم أردفَ قائلًا:

- يا لها مِن ألوانٍ رائعةٍ! لا تستطيعُ رسمَها ولو جلستَ من أجلها لساعات، كم كنتُ أتمنّى أن أَلْتَقي الشخص الذي صنع هذه الألعابَ الناريّةَ لأسأله: أين تلقَّيتَ دراسة الرسم؟ وكيف أتقنتَ هذا الفنَّ الراقي، وتعلّمتَ تناسقَ الألوان وتأثيرَها، وغير ذلك؟

تابع "بربروس" كلامه بالحديث عن إعجابِهِ الشديدِ بهذه الألعابِ الناريّةِ، ثم صَمَتَ عندما أدرك أن الضوءَ القادمَ من بين الأشجارِ يختلفُ تمامَ الاختلاف عن سائر الأضواء الأخرى، فنظرَ إلى الناحية الأخرى ليرى الضوءَ وإن لم يظهر بوضوحٍ بين أغصان الأشجار.

نظر محمد إلى ساعته، ثم قال:

- يا إلهي! لقد تأخر الوقتُ كثيرًا، لماذا لم تأتِ الحافلة حتى الآن؟!

لكنه لم يتلقَّ جوابًا من صديقه "بربروس" الذي تقدّم بضعَ خطواتٍ إلى الأمام كي يشاهدَ الأضواءَ عن قربٍ، وكأنّ الأضواء

القادمة من بعيدٍ من بينِ الأشـجار سَـمَّرَتْهما في مكانهما، ثم قال "بربروس":

- انظر يا أخي!

ثم ابتسمَ، وأكملَ حديثَهُ بقوله:

- إن مـا انبهَـرْتَ به على أنـه ألعاب نارية ما هوَ إلا البدرُ في السماء! القمرُ الذي نراه كلَّ يومٍ!

- ...

فـلا يوجـد فنانٌ في الوجود يسـتطيـعُ أن يَرْقَـى بفَنِّه إلى هذا المستوى من الإبداع الذي يتمتَّـع به القمر، يبزغُ كلَّ يومٍ في هدوءٍ وصمـتٍ، ويضيء السـماءَ بنـوره المتلألئ، وبينمـا نحن هائمون بفـنّ الألعـاب الناريّة، لا نرى الفنّ الذي خُلِقَ به هذا القمر، انظر إلى جماله وسطوعه! هذا هو الفنّ الحقيقيّ... هذا هو الفنّ... كم أنت عظيم يا رب بخلقك الجميل.

أَهْمَـلَ الصديقـانِ مُتابَعةَ الألعاب الناريـة، وتَوَجَّها بنَظَرَيهِما لمشاهدة البدر في السماء، ثم وصلت الحافلةُ التي كانا ينتظرانها في المحطّة، فأَخرجَتْهما من جوّ الأفكار الذي سيطر على عقلهما، فقال "بربروس" إلى صديقه محمد: ”لا ينبغي لنا نسيانُ هذا الفنّ الربانيّ“، وبادَرَ إلى التلويحِ بيده إلى سـائق الحافلة؛ كي يتوقّف فيركب، ولا تفوته الحافلة.



في التأني السلامة

اختلط صوتُ المذياع القادمُ من المطبخ بصوتِ المياه وهي تغلي في الغلّاية حتى انتشر الصوتُ في جنباتِ المنزل.

وضعت السيدة فاطمة كمّيّة من جبنِ الماعزِ في المقلاة، ثم أضافت إليها القليلَ من الماءِ، ثم أغلقتْ غِطاءَ المقلاة، ثم قطّعت الطماطم، وجفّفتْ يديها، قالت لابنها وهي تضعُ أكواب الشاي على الطاولة:

- هل أقطعُ لكَ بعضَ البصلِ الطازجِ يا نجمَ الدين؟

- ...

فلم تتلقَّ ردًّا من ابنها، فكَرَّرتْ سؤالها، قائلةً:

- هل تسمعني يا حبيبي؟ انهض من فراشِكَ ودعْ عنك الكَسَلَ!

أحدثت كلماتُ السيدةِ فاطمة صدًى في رُوَاقِ المنزل كلحنٍ عذب، وبعد لحظات سُمِعَ صوتٌ من جهة غرفة نجم الدين.

كان ذلـك الصـوتُ إشـارةً إلى سـقوط نجم الديـن من على السرير، أي أنه استيقظ من نومه، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أصدر نجم الدين صوتًا كالطفل الذي فَقَدَ كُرَاته الصغيرة "أُف! أُف!".

فمتـى تأخَّـر نجـم الدين علـى الذهـاب إلى عملـه يغضب وتسـيطر عليه حالـةٌ من التوتُّر، ويلـومُ والدَتَهُ بصفتها المسـؤول الأوّل عـن إيقاظـه، بَيدَ أنّ والدتَهُ المسـكينةَ حاولـت إيقاظه أكثرَ من مرّةٍ، لكن دون فائدةٍ.

لم يسـترخْ نجـمُ الدين بتعبيره عن سـخطه وغضبه بكلمات الاعتـراض، وفكّـرَ فـي صياغـة جملـةٍ ليقولهـا لوالدتـه، لكنّـه لم ينجحْ، ثم قال:

- يـا أمـي! هل تفرحينَ عندمـا أتعرّضُ للعتـابِ من مديري في العمل؟!

- أنـا أحـاول إيقاظكَ منذ سـاعةٍ يـا بُنَيّ، لكنّك لم تسـتمع إلَيّ، ألـم تستيقظ قبل ربـع ساعة وجلستَ في فراشك، وقلتَ لي: إنـك اسـتيقظتَ مـن النـوم؟ وبينمـا أنا أعـدّ لك الشـاي خلدت إلى النوم مجدّدًا.

لم يسمع نجم الدين كلام والدته كاملًا، فنهض وارتدى قميصه وبنطاله اللذين وضعهما على كرسي بجواره منذ الليلة الماضية، ثم مضى مسرعًا إلى الحمام كي يغسلَ وجهه، وحاول وهو في طريقه إلى الحمام أن يلبس جواربه لكنّه فقد توازُنَه وسقط وتدحرج على الأرض، ثم عاود النهوضَ صائحًا بأعلى صوته:

- يا إلهي! ما هذا الذي يحدثُ لي؟!

بادرت السيدةُ فاطمةُ إلى إنهاضِ ابنها من على الأرض، لكنه نهض بمفرده دون مساعدة، وغسلَ وجهَهُ بسرعةٍ، ثم توَجَّهَ إلى باب المنزل، فقالت له والدته وهو خارج من البيت:

- هل ستذهب إلى العمل دونَ تناولِ وجبةِ الإفطار؟ انتظِرْ يا بُنَيّ، ألن تأخذَ معكَ المظلّة...؟

لم تتمكّنْ السيدة فاطمة من إتمام كلماتها، حتى مضى ولدُها نجم الدين مسرعًا في النزولِ من على السلّم، وكان عليه أن يسير إلى موقف السيارات الواقع في الشارع الذي يلي شارعه حتى يركب سيارته.

عندما خرج إلى الشارع وجد السماءَ تُمطِرُ بغزارةٍ، فأخذ يسير بحذرٍ في الشارع الذي حولته الأمطار إلى حقلِ أرزٍّ مليءٍ بالطين؛ خَشْيَةَ أن تتسخَ ملابسه.

وبينما هو على تلك الحال، إذ بسيارةٍ تمُرُّ مسرعةً بجواره، فتتسبَّبُ في اتّساخِ ملابسه بالمياه والطين؛ مما زاده سخطًا وأخرجه عن شعوره.

- عيب عليك يا صاح! لماذا أنت مُتَعَجِّل هكذا؟!

لكن السيارة لم تقف للحظة، فمضى نجم الدين إلى السير مسرعًا إلى موقف السيارات لركوب سيارته والانطلاق بها سريعًا إلى إشارةِ المرورِ؛ للّحاق بصاحب السيارة التي تسبَّبت في اتّساخ ملابسه؛ ليقول له: "إنك تقود سيارتَك بغرورٍ، وكأنْ ليس هناك مُشاة يسيرون في الشارع!".

ركب سيارته وضغط بعصبيّة على دوَّاسةِ البنزين، ولم يَلْحَظ المُشاةَ الذين ابتلَّتْ ملابسهم؛ بسبب قيادته السيارة بسرعة عالية، حتى لحق بالسيارة، وحاول أن يدركها من جهة اليمين لمّا عجز عن اللحاق بها من جهة اليسار، وعندما اقترب من السيارة، نظر إلى سائقها، فإذا به يرى جاره الأستاذ لطيف، فقال في نفسه: "إنه جارنا الأستاذ لطيفٌ، هل يُعْقَل ما فعله بي؟ ثمّ متى جدّد سيارته؟".

ثم بدأ نجم الدين يتفحَّص سيارةَ جاره، كانت السيدة أمينة تجلس في المقعد الخلفيّ، ولاحظَ نجم الدين سيّدةً ترتدي غطاءَ

رأسٍ وتسند رأسها على كتف السيدة أمينة، نظر نجم الدين بتركيزٍ أكبر ليجد أنّ هذه السيدة هي والدته.

لم يفهم نجم الدين ماذا حدث، فبدأ يتعقَّبُ سيارة جاره التي أخذت تسير في طريقها إلى المستشفى، لحقهم نجم الدين عند مدخل الطوارئ، وما أن أوقف سيارته جانبًا، حتى وجد أن فريقَ الإسعاف قد نقلَ والدتَهُ إلى داخل المستشفى، ووجد جارَهُ يقفُ أمام باب المستشفى، فسأله بقلقٍ كبيرٍ:

- ما الذي حدث يا أستاذ لطيف؟

- يا نجم الدين، كيف جِئتَ إلى هنا؟

- ماذا حدث لوالدتي؟

- لا داعي للقلق، حالتها ليست خطيرة، فوَفْقَ ما علمنا من الطبيب أن قدمها قد الْتَوَتْ.

- ولكن كيف حصل هذا؟ عندما خرجتُ من المنزل كانت سليمةً ولا تشتكي من شيء.

اصطحب الأستاذ لطيفٌ جاره نجم الدين، وسارا إلى قسم الطوارئ بالمستشفى، فقال لطيفٌ وهو يمشي بجانب نجم الدين:

- ما أن خَرَجْتُ مِن شُقَّتِي حتى رأيتُ السيدةَ فاطمةَ والدَتَك قد وقَعَتْ من فوق السلّم، رأيتُ بيدها مظلَّةً، فقلت لها:

"مـاذا حَدَثَ لـكِ؟" وقد هُرِعَتْ زوجتي عندما سـمعتْ صوتنا، فحملناها سويًا، وأحضرناها إلى المستشفى كما ترى.

فما أن سـمـع نجـم الدين كلمةَ المظلّة حتـى فَهِمَ أن والدتَه قـد أسـرعتْ حتى تَلْحَقَ به، وأنها سـقطت وأصيبـت قَدَمُها لهذا السبب، ثم قال في نفسه:

- يا للهول! ما حدث لوالدتي كان بسبب مظلّتي التي نسيتها في المنزل.

ولمـا دخل نجم الديـن من باب المستشـفى رأى والدته وقد جلست على نَقّالة، فرَكَضَ واحتضَنَها، فقالت والدتُهُ مُتَعجّبةً:

- ألم تذهبْ إلى العمل يا ولدي؟ لقد ابتلّت ملابسك!

نَسِـيَت السـيدة فاطمةُ أوجاعَها واحتضنت ولدَها، ولم تكن تنتظر شيئًا في مقابل عطفها وحنانها على ابنها، فهي تُعبّر فحسْب عـن حُبّهـا لولدها، ذلـك الحب الذي ألقـاه الله في قلوب جميـع الأمهات.

قـام الطبيب بفحص قدم السـيدة فاطمة، وكتـب لها الدواء، وسمح لها بالخروج من المستشفى، فقالت السيدة فاطمة:

- لقد تأخَّرتَ على عملك يا ولدي.

- يـا حبيبتـي يـا أمـي، إنه خطئي، سـأذهب إلـى عملي بعد

أن أوصلك إلى المنزل، ولن أبالي بمعاتبة مديري إيَّايَ، فلَعَلَّ في ذلك خيرًا لي.

كان نجم الدين ووالدتُه يضحكان بينما كانا يتبادلان أطرافَ الحديث فيما بينهما، ولما خرجا من المستشفى كانت الأمطارُ قد اشتد هُطُولها، أَجلَسَ نجم الدين والدَتَه على كرسيٍّ إلى جوار باب مَدْخَلِ المستشفى، ثم سارع إلى ركوبِ السيّارةِ حتى لا تبتلَّ ملابس والدته، شاهدت السيدة فاطمةُ ابنَها وهو يركض، فلم تُهمِل قولَ: "انتبه يا بنيّ حتى لا تسقطَ على الأرض!"، وبينما كان نجم الدين على تلك الحال، أخذ عقل الأم يتخيَّل ابنها كطفل صغير يركض أمامها.



رؤيا الإمام

هبّتْ رياحٌ ساخنةٌ قادمة من البحر على جامع «أَمِينْ أُونُو»، ومن هناك إلى منحدر «زَيْبَكْ» ومن ثَمَّ إلى متحف «أَيَا صُوفيَا».

كان إسماعيلُ يقف كالحارس في محطَّةٍ بمنطقة «أمين أونو» الواقعة وسط المدينة، ينتظر مجيءَ والدته، وبينما كان ينتظر في مكانه ينظر إلى وجوه المارَّة مُحاوِلًا نسيانَ حرارةِ الجوّ، رأى عجوزًا تبدو البسمةُ على وجهها كأنها لا تتأثّر بتعب الصيام، وهذا الطفلُ القادم الذي صام حتى وقتِ الظهيرةِ، ثم حصل على مكافأةٍ ماليّةٍ من والده، واشترى بها مثلَّجات، فها هو يأكل تلك المثلجات كأنّه يأكلها للمرة الأولى في حياته، ويستمتِعُ بمذاقها اللذيذ، وهذا الفتى الذي يجلس إلى الظلِّ... فيا له من فتىً ماكر... هل تهربُ مني لتتخفّى بظلِّ الجدار؟... إنك تُسبّحُ الله بعد الصلاة التي أديتَها بسرعةٍ، أليس كذلك؟... ماذا تفعل؟ ما هذا الذي تُتَمْتِمُ به شفتاك...؟

وهذه القطّةُ التي نامت على الأرض على وجهها، أنتِ أيضًا هربْتِ من مرمى بصري، مَنْ مِنَّا يدري...؟ ربما أنتِ أيضًا

تشعُرِينَ بالضجر؛ بسبب هذا الرجل الذي يُدخِّن في نهار رمضان لا يَأْبَه إلى صوم الصائمين، وتعترضين على هذا التصرُّف بصوت المُوَاءِ كأنك تقولين له: "لا تفعل هذا يا صاح!"، أنتِ على حق أيَّتُهَا القطّة... لكنّك من ناحيةٍ أخرى تَتَرَبّصِينَ من أجل صيد هذا الطائر الموجود في الأمام... انتبهي للسيارة!

وفي تلك الأثناء، مَرَّتْ سيارة مسرعة واستخدم قائدها آلة التنبيه؛ مما أَخافَ القطَّةَ والطائرَ وجعلهما يهربان، نظر إسماعيلُ إلى ساعته، ثم خاطب القطَّة بقوله:

- لا تحزني أيَّتُها القِطّة اللطيفة، لا يزال هناك وقت طويل حتى الإفطار! انظري، فأنا أيضًا أشعر بالجوع، لكن كما قلتُ لكِ لا يزال هناك وقتٌ طويل حتى الإفطار.

عندما كَرَّرَ إسماعيلُ عبارة: "لا يزال هناك وقتٌ طويل حتى الإفطار"، سمع صوتًا يجيبه قائلًا:

- مع مَنْ تَتَكلَّم؟

كانت والدته قد وصلت ووقفت إلى جواره، فنهضَ إسماعيل من المكان الذي كان يجلس فيه القُرْفُصاءَ[١٢]، ونظَّفَ بنطالَه، ثم قال:

---

(١٢) القُرفُصاء: جلسة محدّدة وهي أن يجلس على إليتيه ويُلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه على ساقيه فيمسك ساقيه بالتفاف يديه حولهما.

- هـل أتيتِ يـا أمي؟ كنتُ أحاولُ التحدُّثَ مـع المارّة عندما شَعَرْتُ بالمللِ من الانتظار.

- هـل حاولـتَ التحدُّثَ مـع المارّة؟! يا ولدي لا تَقِفْ كثيرًا في الشـمس، انظر ماذا حَلَّ بك! هل أُصِبتَ بضربة شـمسٍ عندما ذهبتَ للوضوء؟!

- لا يـا أمـي الحبيبة، سـأحكي لكِ ما أريدُ قولَـه لاحقًا، هيّا بنـا فلنبحـث عن الجامـعِ الذي تريدينه حتـى لا نتأخَّر؛ فلم يتبقَّ إلا وقـت قليـل حتـى ميعـاد الإفطار، كمـا أنني شـعرت بالجوع الشديد، هيّا بنا وإلا سأفقد وَعْيِي جوعًا، وحينها لا أدري ما الذي سيَحُلّ بي.

قـال إسـماعيلُ هـذه الكلمـات، ثـم ضحكَ مـن اصطحاب والدتـه مـن ذراعها، وبدأ يمشـي وهـو يقفزُ في الشـارع كالطفل الصغير، فقالت له أمه:

- يا ولدي الحبيب، هيّا نبحث عن ذلك الجامـع، لقد قطعنا مسافةً طويلةً نتمنّى أن نجده هذه المرّة.

وبينما هي تتحدّث، قاطَعَها إسماعيل بقوله:

- يبدو أنه هذا، نعم إنه الجامـع الذي نبحث عنه.

بارك الله فيك يا ولدي! هيا ندخل فندعو أولًا، ثم نفكِّر ماذا سنفعل لاحقًا.

سار إسماعيل برفقة والدته بين البنايات في طريقهما إلى الجامع، عَبَرَا الساحةَ المُحاطةَ بالحجارةِ البيضاءِ، ثم اقتربا من الجامع.

كان إسماعيلُ يطوف بوالدته حولَ الجامع، وهما يستمتعان بروعة البناء، وعندما اقتربا من باب الجامع وَجَدَا الباب مغلقًا، نظر إسماعيل إلى الورقة المعلّقة عند مدخل الجامع، ثم قال وهو نادِم:

- يا إلهي! إن الجامعَ مغلقٌ؛ لأعمال الصيانة.

فلم تقلْ والدته السيدة صفيةُ شيئًا، وكانت تتضرّع بالدعاء. نظر إسماعيل إلى ساعته بعد أن أنهى الدعاء، فوجد الوقت المتبقِّيَ خَمْسَ عَشْرةَ دقيقة حتى موعد الإفطار، الْتَفَتَ إلى أمه، وقال:

- لقد بقي القليلُ من الوقت حتى ميعاد الإفطار يا أمي، والجامع مغلق الآن، هيا بنا نرحل.

وفي تلك الأثناء، دخل رجل من باب الساحة، فكَّرَ إسماعيل في كون ذلك الرجل هو إمام الجامع، ترك الرجلُ الكيسَ الذي كان بيده، وفتح باب الجامع، كان إسماعيل يركِّز نظره على كيس الرجل، حيث كان الكيس يحتوي على بعض أرغفة الخبز

ونحو عشر بيضات، لم يكن الخبز ظاهرًا، بل كانت رائحته تفوح، أو هكذا كان إسماعيل يعتقد.

دخل الإمام الجامع، وترك الباب مفتوحًا، وبعد لحظات بدأت تفوحُ من الداخل رائحةُ البيض النفَّاذةُ التي اشتهاها إسماعيل ورائحة الخبز، فقال إسماعيل متأثِّرًا بالرائحة:

- يا لها من رائحة طيبة! إنني أشمُّ رائحةَ البيض الآن وكأنها رائحةُ اللحم المشويّ، بل أفضل منه.

وبعد قليل إذ بالإمام يقول لهما:

- تفضَّلا.

لم يفهم إسماعيل ووالدته السيدة صفيّة في البداية لمَنْ يُوجِّه الإمامُ الحديثَ، ثم عندما تذكَّرا أنه ليس ثَمَّة أحد سواهما في الساحة، قالا:

- هل تُكلِّمنا؟ كنا سندعو، ثم نغادر.

- حسنًا، ادعُوَا، سيُرفَع أذانُ المغرب بعد قليل، ثُمَّ صبِّروا أنفُسَكما ببعض اللُّقَيمات حتى تعودَا إلى المنزل.

دخل إسماعيل ووالدته الجامع بعد دعوة الإمام لهما إلى الطعام، وعندما دخلا أدهشتْهُمَا مائدةُ الإفطار الصغيرةُ التي أعدَّها الإمام، وكان صوت غلّاية المياه يُحدِث صدى

بيـن جـدران الجامـع، كانـت المائدةُ تضمّ طماطمَ غُسِـلت لِلتَّوّ، وقطعًـا مـن الجبـنِ الأبيضِ، وبعـضَ الزيتـونِ، والبيـضَ المقليّ اللذيذ.

جفف الإمامُ يديهِ من الماءِ بالمنشـفةِ، ثم بدأَ يصُبُّ الشـاي في الأكواب التي كان قد وضعها على المائدة، ثم تَوَجَّهَ بالحديث إلى ضيفيه اللذين دخلا الجامـع وهما يشعران بالخجل منه:

- تفضلا، الأذان على وشـك أن يُرفـع... لقد أعدَدْتُ بعضَ الطعام من رزق الله لنفطرَ عليه، ولقد رأيت في منامي أني أستقبلُ ضيفين، وقيل لي: أَحْسِنْ ضيافتهما، من الجيّد أنكما أتيتما.

أَثَّـرَ الصـدقُ والإخلاصُ اللذانِ كانـا واضِحينِ على كلمات الإمـامِ وتصرفاتِه في إسـماعيل كثيـرًا، وبعد مـدّةٍ قصيرةٍ، أخفى الدهشـة التي سـيطرت عليـه، وجلس على أحد الكراسـي، وبدأ إسـماعيل يتنـاول الإفطار بمجـرد أن رُفِـعَ الأذان على اسـتحياء كالعصفور.

إن ما حدث في الجامـع ألقى في نفوس سُـكَّان حيّ الفاتـح في مدينة إسطنبول الطمأنينةَ والسكينةَ والأمانَ.



صديقنا السمين

أثّرتْ برودةُ الصباحِ في جدران الفصل، وكانت سُتْرات التلاميذ المعلّقة تُضفي ضروبًا من الألوان المُتَداخلة بين دهان الجدارِ الأصفرِ الفاتحِ والدهانِ الرماديِّ الذي لا يُظْهِر آثار الأوساخ.

كان بعض التلاميذ ممن وصلوا إلى المدرسة مبكِّرًا يواصلون نومهم في الفصول، بينما كان البعض الآخر يتحدَّثون فيما بينهم:

- أنا لا أقول ذلك رغبةً في اغتيابه!

- هل سيُسَرّ إذا سمع ما تقوله؟!

- يا أخي! هل ما أقوله كذبٌ وافتراءٌ؟

- ما تقوله ربما يكون صحيحًا، لكن من الخطإ أن تتحدّث بذلك، إذا كان ما تقوله صحيحًا فهذا يُعَدّ غِيبةً، وإن لم يكن كذلك فيعتبر افتراء، أي إن كلامك هذا غير صحيحٍ في كل الأحوال.

وقف أحمد يفكِّر قليلًا إثر سماعه هذه الكلمات، فلم تكن نفسه لِتَرْضى بهذه النصيحةِ؛ مما دَفَعَه إلى سَوقِ جملةٍ من

الحججِ؛ للاعتراضِ على كلام صديقه، فقَطَّبَ ما بين عينيه قائلًا:

- أنت الآن جعلتَني مُذنِبًا، أوَليس من أتحدَّثُ عنه صديقي؟! أعتقد أنك تبالـغ في هذا الأمر.

فردَ أحد أصدقائه:

- الأمر ليس كما تعتقد، سـيأتي اليوم الذي تفهمُ فيه ما أودُّ أن أقولَه لك.

شـعر أحمـد أن أصدقـاءه مُحِقُّـون، لكنَّـه في الوقتِ نفسِـهِ لـم يكنْ يرغبُ في إحراجِ نفسـه أمامهم، فخـرج من الفصلِ كي يغسل وجهه، ثم عاد بعد دقائق ووجهه يقطرُ ماءً.

هَـمَّ أحمـدُ بدخول الفصـل، ولكنه في تلـك اللحظة أُصِيبَ بصدمةٍ كبيرةٍ من جَرَّاء ما سَمِعه من أصدقائه، فقد قال أصدقاؤه: "أحمد السـمين! إنه صديقنا السـمين!"، أَعْـرضَ أحمدُ بوجهه، ولـم يستطـعْ أن ينظرَ إلى تلك الناحية.

قال صديقه هذه العبارة وقد كان يشرح له خطورة الغِيبة قبل دقائـقَ معدودةٍ... نسـيَ أحمدُ مـا قاله قبلَ قليلٍ، وشـعر بالضيقِ من أصدقائه لِمَا سمعه منهم، فقد أدركَ أنه كان مخطئًا ولكن بعد أن مَسَّـه الأمرُ، وبالرغم من ذلك، فقد استشـاط غضبًا لما سمعه من أصدقائه.

فأراد أحمد أن يصيح في وجه أصدقائه حتى يبلغهم أنهم مخطئون، وشرعَ في النهوض من مكانه، غير أنه أدرك أنهم في الدرس، تَمْتَمَ ببعضِ الكلمات قال فيها: "سأُلَقِّنهم درسًا عندما يرنّ جرسُ انتهاءِ الدرس!"، ولم يَنْبِس ببنتِ شَفَة، وجلس في مكانه.

وما أن سمع أحمدُ جرسَ الدرسِ حتى قفزَ فوقَ مقعده، وغَدَا كالحصان الذي يجري في ميدان سِبَاقِ الخيل، وصاح في وجه أصدقائه وقد تغيَّرَ لونُ وجهه واختلّت تعبيراتُه، وبينما كان ينتظر من أصدقائه أن يعتذروا له على ما اقترفوا في حقِّه، إذا بهم يُكْثِرون مِن سُخريتهم منه وضحكهم عليه.

وفي تلك الأثناء أخرج أحد أصدقائه الذين شاركوا في الضحك ورقةً من جيبه، وقال:

- هل تعلم ما هذا؟

- لا يهمني الأمر.

- وهل يعقل ذلك؟! سنلعب غدًا مباراة مع فريق من الفصول المنافسة، ولهذا أَعْدَدْنا قائمةً بأَفْضَل اللاعبين في فَصْلِنا.

أشار أحمدُ بإحدى يديه إلى كَرِشِهِ بعد أن أَدْخَلَ بَطْنَه فِي جَوْفِهِ قليلًا، وقال:

- إذًا لماذا تنادونني بأحمد السمين؟

أجابه أصدقاؤه:

- يا أخي أليسَ لقبُكَ العائليّ "السمين"؟

أجاب أحمد وقد تحوَّل لونُ وجهه من الأحمرِ إلى الورديّ:

- نعم.

تابع صديقُه كلامَهُ بقوله:

- كتبتُ اسمكَ عندما أعدَدْتُ قائمةَ اللاعبين، وعندما ذكرتُ اسمَ أحمد فقط لم يفهمْ صديقُنا سنانُ عن أيِّ أحمدَ أتحدَّثُ، وقد آثرنا استخدام لَقَبِكَ؛ كي لا يحدثَ لَبْسٌ بينك وبين سائر التلاميذ الذين يحملون الاسم ذاته، وقد دخلتَ الفصل بينما كنتُ أقول هذه العبارة.

لم يستطعْ أحمدُ أن يسيطرَ على نفسه عندما سمع هذه الكلمات، فبدأ يضحكُ هو الآخر، فهو الآن يضحك مع جميع أصدقائه، ويقولون بين الحين والآخر: "السمينُ! سميننا!".



رغباتي أم مسؤولياتي...؟

شعرتُ ذلك اليوم بأن هناك أمورًا غريبة تحدثُ في المنزل، في الواقع، بدأ كلُّ شيءٍ عندما جلس أبي يتكلّم معي، لم أكن قد ارتكبت جرمًا، بل كان موضوع الكلام عن الهاتف المحمول الذي رغبتُ في أن يشتريه لي والدي ذلك الصباح، قال أبي -وقد اعتلت وَجْهَه تعبيراتٌ جادَّة-:

- لن أجرحَ قلبَ ابني، بالطبعِ سأشتريه له.

لاحظَ أبي أني أنظر إليه بنظرات متعجِّبة، فواصل حديثه بقوله:

- وإذا لم أستطع فعلَ ذلك، فكيفَ لي أن أنظر إلى وجوه الناس، أيُعقَل أن أكونَ أبًا وأرفضَ تلبية طلبِ ابني الوحيدِ شِراءَ هاتف محمول؟

تيقنتُ بعدما سَمِعتُ هذه الكلماتِ أن والدي يسخر منّي، حيث قال أبي:

- حتى لو كان الهاتف الذي تريده باهظ الثمن سأشتريه لك؟

وحينها لم يبقَ لَدَيَّ شكٌّ في أن والدي يَسْتَهزِئ بي ولن يشتري لي الهاتف، وما أن هَمَمْتُ بأن أقول: "ولكن يا أبي..." حتى أخذَ والدي نفسًا عميقًا، وتابع كلامه قائلًا:

- إذا قَبِلتَ العرضَ الذي عرضتُه عليك سأساعدك كي تشتري الهاتف الذي ترغب فيه.

فَهِمتُ وقتَها أن شراءَ الهاتفِ المحمولِ لن يكونَ سهلًا؛ ذلك لأن العرضَ الذي عرضَهُ والدي علَيَّ كان كالتالي:

- اسمع يا ولدي العزيز، علينا سداد قيمةِ فواتيرِ استهلاك الغازِ الطبيعيّ والهاتفِ والماءِ والكهرباءِ لمنزلِنا كل شهرٍ، سأُعطيك ثلاثمائة ليرة، والقيمة الإجمالية لفواتير الشهر الماضي بلغت مائتين وخمس وعشرين ليرة، وما سيتبقى من تسديدِ فواتيرِ الشهرِ الحالي تشتري به الهاتفَ الذي تريدُه.

- لم يكنْ أمامي خيارٌ آخر سوى قَبُول هذا العرض الذي أَذهَشَني عندما سمعتُه، أعتذر؛ فقد نسيتُ أن أقول: إنه كان أمامي خيار آخر، ألا وهو الإعراض عن فكرةِ شراءِ الهاتفِ المحمولِ، لكنّني لم أكنْ لأرضى بهذه الفكرة.

بدأتْ مُطاردةٌ عجيبةٌ في المنزل عَقِبَ ذلك اليوم الذي تَمَّتْ فيه الاتفاقية، فكلّما رأيتُ مِصباحًا مضيئًا في مكان لا يجلس

بـه أحـدٌ أتذكَّرُ الهاتفَ المحمولَ، ومِن ثَمَّ أنهضُ مسـرعًا إلى زِرِّ الكهرباء لإطفاء ذلك المصباح.

لقـد تبدل حال أمّـي وصار عجيبًا في تلك الأيام، وأصبحتْ تجلـسُ للحديث مـع صديقاتها عبرَ الهاتفِ لدقائقَ طويلةٍ وكأنها لـم تكنْ تقـول لي فيما مضى: "في أي أمرٍ تتحدَّث مـع صديقك منـذ الصبـاح يـا بُنيّ؟"، وقد بلـغَ ذلك إلى الحد الذي شـرحَتْ فيه لإحدى صديقاتها عبرَ الهاتف طريقة طبخ محشـي الملفوف والباذنجان...

عندما يتعلق الأمر بالحديث عن النقاط الدقيقة لطريقة عمل المحاشـي، فأنا أيضًا أشـعر بالترنـح، لكن ليس إلى هذا الحد... هل تعرف كم سعر دقيقةِ المكالمةِ الهاتفيّة؟!

وذات يـوم آخر سـمعتُ أمـي تنبِّه أبي إلى أنه نسـي صنبور الميـاه مفتوحًـا، وجلس بفرشـاة الأسـنان أمـام التلفـاز، فحينها نهضتُ من سـريري مسـرعًا، فقد كانت المياه تنهمرُ من الصنبور كتدفُّقِ مياهِ النهرِ، ففي الوقت الذي آثَرتُ فيه مؤخّرًا مسـح وجهي في الصباح بقطعة قماش مبلّلةٍ حتى لا أسرف في استهلاك المياه، شعرتُ أنني سأفقد الوعي عندما رأيتُ المياه منهمرةً من الصنبور على هذا النحو.

وعـلاوة علـى ذلـك، فقد رأيـت أخـي يجلِسُ أمـام ألعاب الإنترنت لفتراتٍ طويلة، فسـامحته علـى ما فعله لأنه طفل، لكن كلَّ شيءٍ له حدودٌ... ففي مرّةٍ من المرات قام بلعب لعبةِ ركوب الأمـواج على الإنترنت لمدّةِ عشـر دقائق، وحينها جذبتُ سِـلْك الإنترنت حتى كاد يخرج من مكانه في الجدار.

- لا، لا يجوز إنفاقُ النقودِ بهذه السهولة!

كان أخي الكبير يغسـل شـعرَه بالمياه كلّ ليلةٍ؛ كي يسـتعمل كريـمَ تصفيـفِ الشـعر، وأخي الصغير ينسـى إطفـاء المصابيـح، وأمي تسـتخدم غسـالتَي الملابس والأطبـاق... عندما كنت آوِي إلى فراشي في الليل كانت هذه الأشياء تَمُرَ أمام عينيَ واحدةً تِلْو الأخرى وهي تُقِضُّ عَلَيَّ مضجعي وتسرق النوم من عيني.

وبعـد مرور أسـبوع على توقيعـي الاتفاقية مـع أبـي وجدتُه قـد جمـع أفـراد العائلة فـي الصالـة، يتحدّث معهم حول شـيءٍ ما، وما أن دخلتُ غرفتي حتى سمعتُ طوفانًا من القهقهات قادمًا من مكان تجمُّعهم.

فمن جانبها، كانت والدتي تحكي لهم ردَّ فِعْليَ الغاضبَ إزاء مكالمتها الهاتفيةِ الطويلةِ المتعلقةِ بمحشي الملفوف، ومن جانبه يحكـي أخي الصغير ما فعلته معه عندما كان يسـتخدم الإنترنت،

وأمـا والدي فـكان يُقلِّدنـي عندما ركضتُ نحـو الحمام لإغلاق صنبورِ المياهِ الذي تركَهُ مفتوحًا بينما كان يُنظف أسـنانَهُ بالفرشاة والمعجـون، وحينئـذ أدركـتُ أن ما يحـدث ما هو إلا مسـرحية جميلة تَهْدُفُ إلى إظهار الأخطاء التي ارتكبتها فيما مضى.

لا أكذب حين أقول إن ممثلي هذا العمل المسرحيّ قد أَدَّوا أَدْوارَهـم علـى أكمل وجه، وعلى ما يبدو لي أنه كان هناك الكثير من الأشياء التي كنتُ أقوم بها في غير موضعها.

أَجَّلْتُ طلب شراء الهاتف الذي كنتُ أرغب في شرائه لفترة طويلة؛ لعدم رغبتي في الوقوع في الخطإ للمرّة الثانية.



انقِذني يا دكتور...!

لـم تُفْتَـحْ بعـدُ أبـوابُ الغُـرَف المصطفَّـةِ فـي الممـرّ جنبًا إلـى جنـب، لـم يظهـر في ذلـك المـكان سـوى ممرضـةٍ مناوبة وعاملِ النظافة الذي قام بتنظيف بداية الممرّ بالممسـحةِ بسـرعةٍ، ثـم توقّـفَ، وتحـوَّلَ بعدها بالسـرعة ذاتِهـا إلى الجهـة المقابلة، وواصـل عمليـة التنظيف، وعندمـا انتهى من عملـه كانت رائحة المُبَيِّض تفوح في الممر.

فتـح عامـل النظافة النوافـذَ الواقعةَ على جانـب الممر حتى تـزول هـذه الرائحة التي قد تصيب الإنسـان بالإغمـاء، ثم وقف للحظةٍ ونظر خلفه، ثم انطلق لتنظيفِ الطوابق الأخرى وهو يجرّ رجليـه، وبعـد أن غـادرَ عاملُ النظافـة الممرَّ، ظهر رجـلٌ عابسُ الوجـهِ في نهاية الممر، كان هذا الشـخص هـو الدكتور ممدوح، ويتَّضِـحُ من تصرفاتِه أنه إنسانٌ غليظُ الطبـع.

عدَّلتُ وضعية الملفات الموجودة على مكتبي، وقلت له:

- صباح الخير يا دكتور ممدوح.

لكنه لم يسمعني، كرّرتُ ما قلتُه، فنظر إليَّ نظرة ارتياب، وقال:

- نعم يا أستاذ إحسان.

- خيرًا يا دكتور ممدوح؟

لكنه لم يُجِبْنِي بشيء، يبدو أن هناك شيئًا غريبًا، وكان احمرار أُذُنَي وأنفِ الطبيب ممدوح دليلًا على غضبه، وسَألَني:

- هل تشعر بما أشعر به يا أستاذ إحسان؟

- نعم، كَلَّفْتُ عامل النظافة قبل قليل بفتح النوافذ حتى تزول رائحة المُبيِّض الذي استخدمه، لكن الرائحة كما هي لم تختفِ، نبَّهتُ عامل النظافة «عمّ كاظم» ألّا يستخدمَ الكثيرَ من المُبَيِّض في عملية التنظيف حتى لا تتحوّل المستشفى إلى مِغْسَلة، لكنه من الواضح أنني لم أستطعْ إفهامه.

- ماذا تقول؟ مُبَيِّض؟

- ...

نظر الدكتور ممدوح إليَّ من أعلى نظارته، ثم واصل كلامه بقوله:

- ما قصدتُه هو رائحة دخان السيجارة.

- نعم أشعر كأن هناك رائحةً خفيفةً.

- هل تصفُ رائحة السيجارة القادمة من هذا الملفِّ بأنها خفيفة؟! لا أستطيع تكليفَ العمال بغلقِ النوافذِ منذ يومين حتى تزولَ الرائحةُ.

فهمتُ حينها أن الدكتور ممدوحًا يشعرُ بالغضب بسبب دخان السجائر، ثم تابع الدكتور حديثه وهو غضبان:

- الناس يفعلون ما أكرهه كرهًا شديدًا ويتعمَّدُونَ مُضايَقَتِي.

وعندما رآني أَبتَسِمُ، بدأ يحكي ما حدثَ معه في الصباح:

- رأيتُ رجلًا يدخِّنُ السجائر هذا الصباح في محطة الحافلات، فحذرتُه من هذه الفِعلة.

- وهل أطفأ السيجارة؟

- هيهات!

- هل يعقل ذلك؟!

- اعتقدتُ أنه لم يسمعني فكرَّرتُ ما قلتُ: "يا أستاذ، لو سمحت أطفِئِ السيجارةَ، فهناك أطفالٌ صغارٌ حولك"، فقام هذه المرة بمواصلة التدخين وهو ينظرُ في عينيَّ وكأنني أتحدَّثُ إلى جدارٍ بجواري وليس إلى إنسانٍ بالغٍ!

غضب الدكتور ممدوح وهو يحكي ما حدث معه كأنَّ الحادثةَ تَتكَرَّر أمامه مرّةً ثانيةً، فضرب بيده على المكتب، فقلتُ له:

- لله دَرُّك يا دكتور، هل أَغْضَبَكَ هذا؟

- لـم يقتصر الأمر على ذلك، فعندما تأخَّرت الحافلة ركبتُ سـيارةَ أجـرةٍ، وأعتذرُ أني وصفتُها بسـيارةِ الأجـرة، فكان يجب عَلَـيَّ أن أَصِفَهـا بغرفـة الغـاز، فـكأن قائدهـا قد أكثـر التدخين، وأغلق الأبواب والنوافذ بإحكام، وانتظرني كي أركبَ السـيارة... يـا إلهـي! اعتقدت أنني سـأموتُ، قلت للسـائق: "لو سـمحتَ، أَطْفِئ السيجارة؛ لأنها تؤذيني"، فبادَرَ السائق إلى إلقاء السيجارة التي شربها تقريبًا إلى نهايتها من نافذته بعدما قال: "أَشْعَلْتُها قبل قليل، أفأطفئها حالًا...!

نظـر الدكتور ممـدوح من النافذةِ إلى الخـارج وابتلـع ريقه، وكان يعانـي صعوبـة في الـكلام، وبعد أن نثر العِطْـرَ من زجاجةٍ كانت بحَوْزَتِهِ على المكتب والأرض، وتابـع كلامه قائلًا:

- وكأن مـا حـدث لـي غيرَ كافٍ حتى أتيت إلى المستشـفى لأجـد هذا الملـف الذي يفوح منه دخان السـجائر، الرجل الذي جـاء بهذا الملف على وشـكِ المـوتِ إلا أنه مُصِـرٌّ على تدخين السجائر، هل تعلم يا أستاذ إحسان أنني قلت له مُحَذِّرًا: إننا ربما

نُجـرِي عملية بَتْر لذراعه وسـاقه بسـبب التدخين، وربمـا يُضْطَرُّ إلى أن يعيش بواسطة جهاز طبي!؟ لكن دون فائدة!

كان الدكتور ممدوح يتنفّس بصعوبةٍ كالسـمكة التى خَرَجَتْ مـن الماء، وكان مَنْخَرا أنفه ينتفخان وهو يتكلم، كما كانت عيناه تَجْحَظَـانِ كأنهمـا سـيخرجان مِـن مكانهما، أكمـلَ حديثَه بعدما استراح قليلًا:

- أعتقد أنه لو جاء عشـرةُ أطباء محترفين لإقناع هذا الرجل فلن يسـتطيعوا، قلت له مرارًا: "يا أخي أنت تموت تدريجيًّا، دَعْ عنـك ذلك العنـاد!"، لكن هيهـات! أولئك النـاس يصرّون على الإدمان إصرارًا عجيبًا... فهم كالأنعام بل هم أضلّ سـبيلًا!، ففي حين أننا نتقزَّزُ من رائحة السجائر ولا نستطيـع البقاء في غرفة بها دخانها، تجد الرجل يأكل ويشـرب ويتنفّس وفمه تفوح منه تلك الرائحة الكريهة...

كانـت تعبيـرات الدكتـور ممـدوح تـدلّ علـى أنـه حزيـنٌ علـى تلـك الحال التي وصـل إليها ذلك المريـض، فكلما يَضِيقُ ذَرْعًـا مِن أَمْرٍ ما يحكي بهذه الطريقة، وأما أنا فأسـكتُ وأسـمعُه فحسـب، تـركَ الـكلام للحظـاتٍ وبـدأ الاهتمـام بملـفٍّ أمامه، اعتقدت أنه نسيني، لكنه عاوَدَ الحديثَ ووجهُهُ تعلوه بسمةٌ قائلًا:

- فما أَعْظَمَكَ يا رسولَ اللهِ ...!

ثم صمتَ وعيناه تبتسمانِ، وكأنه في مركبٍ شراعي يتأرجح به بأريحيّة تامّة في مياهٍ ساكنةٍ، وهو يرسم مدينتَه الفاضلة، قائلًا:

- إنه لَمِنَ الجنون عدمُ الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بعد العِلْم بهدايته البشرية وإبعادهم عن عادات أكثر سوءًا من التدخين؛ مما يحثُّنا على القول بأنّ الأنبياءَ وحدَهم هُم القادرون على إنجاز تلك المهامّ الجسام، التي لا ينازعهم فيها غيرهم من الفلاسفة والعلماء ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

وفي تلك الأثناء الْتَفَتْنا نحو الشخص القادم وهو يَسْعُلُ، وكان ذلك الشخص هو المريض الذي تحدّث عنه الدكتور ممدوح، وقد سَبَقَتْهُ رائحتُه إلى المكان، كان يشبه الطفل الصغير الذي يستعدّ لدخول الاختبار بتصرفاته المُشينة.

فقال: "تركتُ الملف قبل ذلك يا سيدي الطبيب ولكن... "

قلت له:

- تفضَّل اجلس، الأمر سيطول، لا تنتظر واقفًا هكذا.

أجلستُ المريضَ الذي كان يبدو متعبًا إلى الحدِّ الذي لا يستطيع معه الحديث، واستطاع فقط أن يشكرني بعينيه وهو يجلس على الكرسي، صار وجهه شاحبًا كدخان السيجارة، وقال للطبيب: "أَنقِذْني يا دكتور لو سمحتَ!".



حارِسُ القَصْر

مع إغلاقِ جميع الأضواء خَيَّمَ الصمتُ على كلِّ شيءٍ في المنزل من الصنبور الذي يقطرُ ماءً، إلى صوت المذياع وقَرْعِ نَعْلِ الجار فوقنا حتى صرير الجراد[13]، ولقد انقطع هذا الصمت الذي استمرّ طويلًا بإصدار الباب صوتًا كالصاعقة التي تضربُ الأرضَ ليلًا، وكان ذلك الصوت قادمًا من ناحية المطبخ.

سمع أيمن الذي كان مُستَغْرِقًا في النوم كبقية أفراد الأسرة ذلك الصوتَ، فنهض من فراشه، وخمّن أن مَصْدرَ الصوتِ قادم من المطبخ، فآثَرَ الذهاب بنفسه إلى هناك وهو يمشي بِبُطءٍ وحذرٍ.

وما أن فتحَ بابَ المطبخِ حتى وجد شقيقَهُ "صبحي" يقف عند باب الثلاجة، فقال له:

- ماذا تفعل؟

---

(١٣) صرير الجراد: صوته.

فأجابه "صبحي" والتوتُّر يسيطر عليه:

- صَدِّقْني يا أخي، أقوم بذلك مضطرًّا.

- دعك من هذا الكلام، فقد كدتُ أن أُهَشِّمَ رأسَك في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أخذ أيمن يُقنع شقيقَه بأن ما يفعله في هذا الوقت المتأخر من الليل خطأ، وهو يحاول إغلاقَ باب الثلاجةِ، وبدأ الأخوان يتدافعان أمام باب الثلّاجة كأنهما يلعبان لعبةً من ألعاب الأطفال الصغار، اعتقد أيمن أنه لن يستطيع إقناعَ أخيه داخلَ المطبخ، ودعاه للانتقال إلى الفِنَاءِ، أو بالأحرى أنه أَخْرَجَه من المطبخ دافعًا إياه بيديه.

- أشعرُ بالجوع أحيانًا في هذا الوقت...

- كيفَ يحدثُ هذا؟! هل يمكن لإنسان أن يأكلَ في هذه الساعةِ المتأخِرة من الليل؟!

تأَفَّفَ صبحي وشعر بالضجر، ثم قال:

- في الحقيقة أنا أشتكي من هذه العادة، لكني لا أملك حلًّا للإقلاع عنها، ولا أستطيع السيطرةَ على نفسي.

- يا إلهي!

وعندما لم يستطعْ صبحي إقناعَ شقيقه الأكبر، تَمْتَمَ بكلماتٍ قال فيها:

- وهل تعتقد أني سعيدٌ باستيقاظي في الصباح وفمي تفوحَ منه رائحةُ الأكل المُتَبَّل؟ ولكن...

نظر أيمن إلى عيني شقيقه بنظرةٍ حادةٍ، ثم قال:

- ولكن، ماذا...؟

- أَشتاءُ مِن تلك الحال، ثم أُعاوِدُ الأكْلَ مرّةً أخرى.

لم يأخذ أيمن هذه الكلمات التي قالها شقيقُه بعين الاعتبار؛ لأنه شاهدَهُ من قبل على تلك الحال، ولهذا حاول إنقاذه من تلك العادة السيئة، مُتَذَكِّرًا قول أمه: "ماذا سيحدثُ لو زادَ وزنُ ابني قليلًا؟"، وقولَ أبيهِ: "لم يعدْ بإمكاني إيقافُ هذا الطفل عن تناول الطعام، لا أستطيعُ ضَبْطَه وهو يأكل، حاوِلْ أن تُراقِبَه يا أيمن يا ولدي حتى نستطيع السيطرةَ على النَّهَم الذي يتحكم به"، وقد بادَرَ أيمنُ إلى مراقبة شقيقه الأصغر كالمُخبِر السِّرِّيّ بعد تلقِّيه هذه التعليمات من والده، وكان يُؤدّي مهمَّتَهُ بدقَّةٍ فائقةٍ؛ حيث أَجْلَسَ شقيقَه الأصغر على مقعد في الفِناءِ، ثم قال له:

- أنت لا تتناول الطعام، بل إنك جَعَلْتَ الأكلَ هدفًا لك في الحياة، فأنت تأكل طوال النهار، ثم تستريح قليلًا عندما تتعب،

ثـم تُعاوِدُ مُواصلةَ الأكل، أنتظـرُ منك أن تُخفِّف أَكْلَك بعد وجبة الإفطار الدَّسِمة، لكن هيهات! فلقد استَحْدَثْتَ وَجْبَتَينِ جديدتينِ إلى وَجْبَتَي الغداء والعشاء، ألا وهما وَجْبَتَا الصباح والعصر.

- أعتقد أنه ليس بهذا القدر...

- ...

- قد يحدث ذلك أحيانًا...

ضحك صبحي وقال "يا إلهي".

تابع شقيقه الأكبر أيمنُ كلامَه:

- أنـت تتنـاولُ بعـضَ الأكلات الخفيفـة مـع كوب الشـاي فـي المسـاء، ثم تُكثـر مـن أَكْلِ المُقَبِّلات وأنت تشـاهدُ الأفلام، وتسـتمعُ إلى الأغاني، وتسـيرُ في الشـارع، وتُذاكِرُ دروسَـك... لا أدري كيـف تفعـل ذلك؟! لكنّـك تأكل باسـتمرار، أعتقد أنك من الممكن أن تنجحَ في الأكل حتى وأنت تسـبح أو تنام! وكلّ هذا لا يكفي، فتذهب إلى المطبخ قبل النوم؛ لتأكل كلّ ما تجده أمامك!

- ...

- وإذا قلـتُ لك إنك تتواجـدُ داخلَ المطبخ أكثر من طاولة المطبخ نفسها، لن أكون كاذبًا.

- في الواقع، أَدْرَكْتُ كم أنني آكُلُ كثيرًا، لا سيما عندما نَبَّهْتَنِي إلى الأمر، آهٍ على حالي!

لاحظَ أيمن أن شقيقَه بدأ يشعرُ بالضيق والحزن، فتَلَطَّفَ في الحديث إليه، وقال له:

- اسمع يا أخي، لقد خَلَقَنا الله ﷻ في صورة قَصْر مُشَيَّدٍ، فحاسَّةُ التذوق الموجودة في فمك تُشبِه حارسَ البيت، والخلايا العصبيةُ كأسلاكِ الهاتفِ المستخدمةِ لإرسال الأخبار إلى المَعِدةِ، فإن كان الأكلُ الذي سيدخل المعدةَ ليس له ضرورة تقول: "هذا ممنوع!"، ثم تَلْفِظُه إلى الخارج، وفي الوقت الذي تعتبر فيه حاسّة التذوُّقِ في الفمِ بمثابةِ الحارسِ على باب القصر، فإنَّ مَعِدَتنا هي المسؤولةُ عن إدارة الجسد، وإذا كانت قيمةُ الهديّةِ الممنوحة للقصرِ وحاكمِ ذلك القصر تبلغ مائةَ درجةٍ، فإنه من المناسب أن يُمنَحَ الحارسُ الخُمْسَ فقط، ولا يمكن مَنْحه أكثر من ذلك؛ لكيلا يَغْتَرَّ ويحيد عن الطريق المستقيم، ومن ثَمَّ يَنْسَى وظيفتَه الأساسيةَ، فنحن نريدُ منه ألَّا يسمح للدُّخَلاء -الذين يدفعون له قيمةً أكبر- بالدخول إلى القصر، أليس كذلك؟

استمع صبحي لكلام شقيقه الأكبر مُصغِيًا إليه بأذُنه وقلبه، ونهض من على مقعده ثم قال:

- حسنًا يا أخي، لقد استسلمتُ، وأوافق على كلّ ما تقول، فأنت قد استعددتَ جيّدًا لتلقيني هذا الدرس؛ من أجل إقلاعي عمَّا أَفْعَل، وتَيَقَّنْتُ أنه ينبغي لي مِن الآنَ فصاعِدًا أن أمتنع عن ممارسة هذه العادة السيئة.

- بارك الله فيك يا أخي العزيز!

- لو رَغِبْتَ فبإمكاننا تَناوُل بعض الفاكهة بينما نحن نتناقش ثم نأكلُ البقلاوةَ المغمورةَ بالقشطةِ، وعليها بعضُ الآيس كريم... يا سلام...!

- ماذا...!

- أمزحُ معك... فأنا أيضًا كنتُ أفكِّر في ضرورةِ أن أمنعَ نفسي عن الأكل المتواصل.

ثم ضحك صبحي مع شقيقه الأكبر الذي كان ينظر إليه مُتَعَجِّبًا من كلماته التي قالها قبل قليل.

وعندما عاد الشقيقان إلى فراشَيهِمَا كان الصمتُ قد خَيَّمَ على المكان، أخذ صبحي يُكرِّر عبارة: "لا تَمْنَحِ الحارسَ الكثيرَ من المكافآت" وهَدِيلُ الحَمَامِ يصدح بين أسطُحِ المنازل، مُحاوِلًا إخمادَ شعور الجوع لديه، ثم سرعان ما غطَّ في النوم.



الوسواس القهريّ

مستلزماتُ التنظيفِ الموضوعةُ فوقَ السيراميك الأبيض، والأحواض، والمرايا اللامعة... والصوت الإيقاعيّ للمياه المتقطِّرةِ من الصنبور غير المُحْكَم غَلْقه...

عَمَّتْ محادَثةُ الصنبورين الصديقينِ -اللذين أخذا موقعهما بين الصنابير المصطفَّة جنبًا إلى جنب- أرجاءَ الحمام الذي كان يُخَيِّم عليه الصمتُ:

- ولكن لا يمكن أن يكونَ إلى هذا الحدّ...

- ما الذي حدث مجددًا!

- ألا ترى؟

- لا! لا أرى شيئًا.

- لقد رأيتُه قبل ذلك، يفتح الرجلُ المسكينُ الصنبورَ، ويغسل يديه وخريرُ الماء ينهمرُ.

- وما الغريب في ذلك يا عزيزي؟

لقد استغرقتْ عملية غَسْل يديه المَرَّة السابقة تسعًا وعشرين دقيقةً.

- لحُسنِ الحظِّ أن هذه العملية لم تستمرّ لثلاثين دقيقةً!

صمت الصديقان عندما أَغْلَقَ الرجلُ الصنبورَ، وكانا يُتابِعانِهِ بحماسٍ كبيرٍ، جَفَّفَ الرجل يديه، ثم هَمَّ بالخروج من الحمام، لكنه سرعان ما تَرَاجَعَ عن ذلك، فعاد لِيفتَحَ صنبور المياه مجدّدًا، غسل يديه مرارًا وتكرارًا... وتَدَفَّقَتِ المياه من الصنبور مُنهَمِرةً... أخذ الصنبورانِ الصديقانِ ينظُرانِ إلى الرجُلِ وما يفعله بإمعانٍ شديدٍ... ثُمَّ واصَلا حديثَهما:

- لقد ظل يغسل يديه لوقتٍ طويلٍ حتى احمرَّتْ يداه، وحينها توقَّف عن غسلهما، رفع يديه صَوبَ ضوء المصباح، وابتسم وشعرَ بالسعادة عندما تيقَّنَ أن جميعَ أصابع يديه قد تجعَّدتْ من إفراط غسلها بالماء.

- لم يتوقَّفِ الأمرُ عند هذا الحد!

- بالتأكيد... إن هذا الرجلَ مصابٌ بالوسوسة القهرية، يعتقد أن يديه غير نظيفتين، ومن ثَمَّ يُعاوِدُ غسلَهما مراتٍ عديدة، وما هذا إلا شعورٌ بالوسوسة... فهذه المشكلةُ تَتَفَاقَمُ كُلَّما أَعَارَها الإنسانُ اهتمامًا، أما إذا لم يهتم بها فإنها تختفي وتزول، فإذا نظر

إليها نَظْرةً مُتَعاظِمةً تَعْظُمُ، وإذا نظر إليها نظرةً مُتَواضِعةً تصغُر.

كان الصنبور الآخرُ على وشـكِ الردّ على كلام صديقه حتى شَعَرَ بالضيق، وتراجـع عن الكلام، وحينها واصل صديقُه كلامَه:

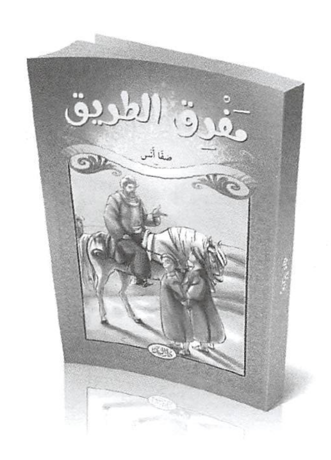
- حان الدور على غســل وجهه، ووقتها دخل الحمامَ عاملُ النظافة وهو يحمل الممســحةَ في يـده، فانزعـج الرجلُ مِن قُدُوم عامل النظافة، وآثَرَ غسلَ وجهِهِ في عَشْرِ دقائِقَ فحسْب!

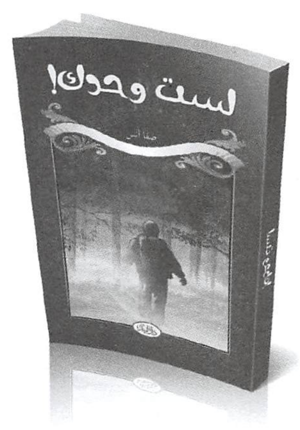
- وهــل هــذا يُعْقَل؟! هل تَمَكَّنَ الرجلُ المســكينُ مِن غســل وجهه في عشر دقائق فحسْب؟!

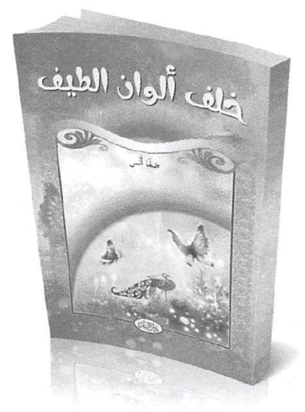
ضحك الصنبور الآخر على كلام صديقه.

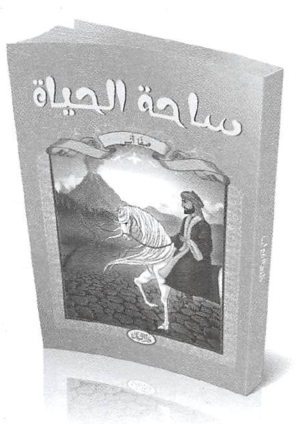
وتَوَقَّـفَ الصنبـورانِ عن متابعة تصرُّفـات الرجل الذي يقف بالقــرب منهمــا، لاحظَ الرجل أن بعض الأشــخاص قـد تَوافَدوا علـى الحمّام لغســل أيديهــم، فأغلـقَ الصنبورَ الذي جُـنَّ جنونه مـن كثرةِ تدفّق المياه منه، ثم خرج مـن الحمام حزينًا كئيبًا وكأنه دَخَلَـه منـذ لحظـات، وكان شـارِدَ الفِكْـرِ لدرجـة أنه لـم يلحظ الصنبورين اللذين كانا يُتابِعانِهِ، ولا خَرِير انهِمارِ المِياه!

سلسلة حكايات رسائل النور









مجموعة قصص مبسطة مختارة مما ورد في كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعي
النورسي، تهدف إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الأعزاء قيمنا النبيلة كالإيمان بالله تعالى والأخلاق
الفاضلة ورعاية حقوق الآخرين ومعاملة الناس معاملة حسنة.

كما ترمي هذه القصص الجميلة إلى تحسين سلوك أولادنا وتصرفاتهم.

ونريد أن نذكر بأن أولادنا وبناتنا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القصص التي تساعد على تنشئ
جيل صالح نافع.